BOBST LIBRARY
3 1142 02820 9024

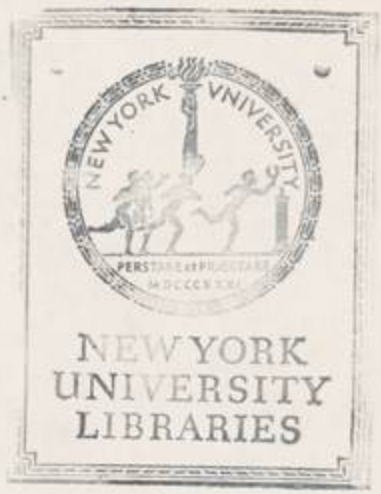

GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY

al- Būṭī, Muḥammad Sa'īd Ramaḍān.
T front

في سبيل الله .. والحق

Fī sabīl Allāh wa-al-ḥagg.

بقلم

محمد سعيد رمضان البوطي

دبلوم في اصول التشريع الاسلامي
واجازة في التربية والتعليم
من الازهر

نشر وتوزيع

المكتبة الاموية بدمشق

للطباعة والتوزيع والنشر

حقوق الطبع محفوظة للناشر

NEW YORK UNIVERSITY LIBRARIES
NEAR EAST LIBRARY

المطبعة الجديدة ـ دمشق

Near East
DS
38
.B85
c.1

المكتبة الأموية
تاسست سنة ١٩٤٧ بدمشق
المركز الرئيسي شارع بور سعيد
هاتف ٢٤٧٢٧ ص٠ ب ٣٢٦

بين يدي الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

أحمد الله وأستعينه ، واستلهمه السداد في الرأي ، وأسأله الاخلاص في القول ، وأرجوه التوبة والغفران .

وبعد فيرى القارىء في هذا الكتاب فصولاً شتى ، وبحوثاً متنوعة المواضيع . غير أنه لن يجد فيها تجاوزاً عن حقيقة الوحدة الكاملة التي ينبغي أن تقوم على أساسها حياتنا المفضلة ووحدتنا الجديدة .. واذا كنت قد تناولت في هذه الصفحات أكثر مقومات هذه الوحدة الكاملة من دين واجتماع وآداب ، فذلك لأن مشكلاتنا الكثيرة انما هي قائمة في هذه النواحي الثلاث .

على أن هذه النواحي وان بدت مختلفة ، ولكنها تظل متشابكة متساندة في كل وقت . فالباحث الذي يهز ببحثه واحدة منها ، لا بد أن يجد الهزة قد سرت في الجانبين الآخرين أيضاً ، ولذا فهو مضطر — اذا أراد لبحثه الشمول — أن يرعى الجوانب الثلاثة كلها . وبرهان

ذلك أن كثيراً من مشاكلنا الاجتماعية يعود سببها بعد قليل من النظر والبحث الى مشكلة الأدب في عصرنا الجديد ، ومعظم مشكلاتنا المتعلقة بالدين يعود مثارها الى بعض معاييرنا الاجتماعية أو الأدبية . والمشكلة الوحيدة في هذه وتلك والأولى ، تعود الى سوء تقديرنا لمثلنا العليا التي يجب علينا كأمة عربية ذات سيادة ورسالة أن نأخذ أنفسنا بها ، وأن نجعل من سائر نواحي حياتنا وسيلة لتحقيقها ، لا غاية تتخذ مكانها الى جانبها، ثم قد تتوافقان وقد لا ..

ومشكلة المشاكل من وراء هذا ، هي أن بيننا من لا يؤمن بغاية موحدة تقوم عندها ما نسميه بالمثل العليا . انهم يرون أن اللذة مثلاً .. اللذة التي تكون ثمرة لأي شيء ، هي أيضاً غاية برأسها ، ومن حق هذه اللذة أن تركل بقدمها كل ماهو قدسي اذا لم يتسع المكان لكليهما . ومن هنا يمتد النقاش ويطول بين عبيد الحيوانية وعباد الله ، ثم لا ينتهي النقاش الي أي تلاق . ذلك أن الطريق مختلف ، والوجهتان متعاكستان، والغايتان متدابرتان .

ولذلك فان سبيلنا في هذه الفصول ليس هو محاولة وضع حدقة في وجوه الذين لا يبصرون قدسية الدين والاخلاق ، حتى يبصروا بها ذلك . اذ انهم يغتبطون بأن لا يبصروها ، ويتمنون على الله أن لايخلق فيهم العين التي تراها أو العقل الذي يدركها . ولو أنهم أدركوا ذلك ورأوه رأي العين ، لرأوا في ذلك شبح الحية التي تفزعهم ، وشأنهم يكون اذ ذلك أحد أمرين : اما محاولة قتل الحية التي تهددهم ، أو التولي عنها والهروب من وجهها لكي يستطيعوا أن يقولوا انهم لايرون

شيئاً . وهذا الثاني هو الحاصل اليوم لدى معظمهم ، فحسبهم أن يسدلوا فوق أعينهم أي غشاوة لكي يتأتى لهم أن يزعموا أنهم لا يرون شيئاً .

أجل ، اننا لم نقصد بهذه البحوث المضي في هذا السبيل .. ولكن الذي قصدناه هو أن يعثر الباحثون عن الحقيقة على قبس يهديهم في الطريق ، وأن يتخذوا منها رشداً يكفيهم شعوذة المشعوذين وكيد الكائدين . ولسنا بحاجة بعد ذلك الى خلق دعاية للحق ، اذ هو وحده خير دعاية لنفسه ، ولسنا بحاجة أيضاً الى تكريه بالباطل ، اذ حقيقته أكبر محذر عن نفسه .

* * *

ثم ان بعض هذه الفصول كتب في مناسبات سابقة ، ونشر مع مناسباتها في بعض الصحف ، والبعض الكثير منها كتب لينشر في هذه الصفحات . ومعظم مانشرته سابقاً قد زدت عليه وتصرفت فيه هنا .

وخيرُ ما أتيمَّن به في سبيلي هذا هو عهدنا الجديد .. هو وحدتنا التي قامت ولاشك على هذه (المثل) التي تحدثت عنها ، والتي هي محور ما أدعو اليه في هذا الكتاب . ولست أشك في أن هذه الوحدة ، قد بدأت تحيي دفين تاريخنا الغابر ، الذي ساد معظم العالم ، وحمل اليه رسالة السماء ، رسالة العرب الى العالم . ولست أشك في أن قائد هذه الوحدة ، يقدر هذه الرسالة خير تقدير ، ويعرف مدى خطورتها أدق ماتكون المعرفة ، ويسير نحو تحقيقها في أثبت خطى وأقوم طريق . والله المستعان وعليه الاتكال .

والله أكبر والعزة لرسوله وللمؤمنين .

تاريخ أغر يتجدّد

.. لقد هرمت رسالة الرجل الأبيض ..
تلك الرسالة القاتمة السوداء وها هي ذي تحتضر
لتموت عما قليل الى غير رجعة ..

وأخيراً قدر الله ـ وله الحمد والمنه ـ أن يولد تاريخنا الأغر من جديد . . وأن يتمطّى مجدُنا الغابر ، ليعود فيتبوء مكانته في صدر الدنيا ، وان تطوى صحيفة الكلام عن مآثر الماضي ، لتبدأ ثورة الدأب على خلق تلك المآثر واحيائها من جديد .

كنا نقول قبل اليوم : كان العرب في الشرق أمة واحدة ، فكانت تحفظ للشرق اشراقه ، وتقذف من ضيائه الى غياهب الغرب أيضاً .

ولكننا اليوم نقول : أصبح العرب أمة واحدة ، تعيد الى العالم سلاماً ، وتؤسس في أركانه عدلاً ، وتعيد لها فيه مجداً . وشتان بين حديث من التفاخر بأطلال الماضي ، وثورة تطبع سطور عزمها في صفحات المستقبل .

تعالوا اليوم وفتشوا . . فتشوا في قلب كل عربي وعربية في هذه الدنيا ، هل تجدونه الا منتعشاً بأنفاس العز ، مرتعشاً بخفقات الأمل ، مستطيراً بفرحة الوحدة ؟

فتشوا عن العمال في معاملهم ، والزراع في مزارعهم ، والموظفين في مكاتبهم ، وابحثوا عن النساء في بيوتهن ، والى جانب مهود أطفالهن ، وعن الصبيان في لهوهم وفي صفوف مدارسهم ، فستجدون الأعين تبتسم بالدمع وتتألق بالأمل وترنو بالشكر الى بارىء الأرض والسماء .

وأما الـذين في قلوبهم مرض . . أما الحاقدون الذين يلتهم الغيظ أحشاءهـم ، أما الذين يتضايقون مـن الأحرار ، لانهـم لايشركونهم في حمل الاغلال والاصفاد ، فلهم اذا شاؤوا ان يتركوا أنفسهم لهذا الحقد يسم فؤادهم حتى النهاية . . . ولهم اذا أرادوا أن يسلكوا مثلنا هذا الطريق الذي فتحناه ومهدناه ، واذا بهم معنا في صعيد الحرية والانطلاق والعز ، اخوان متحابون متعاونون .

* * *

ومـن بعض جوانب هذا العالم يلتمـع تساؤل عن غاية هـذه الوحدة . . وهو تساؤل يهدف اما الى السخرية ليبدد وقع الالم على نفوس المتسائلين ، أو الى تجاهـل أمر لا يريدون أن تتـذكره ونتنبه اليـه .

ان غاية الأمة العربية من وحدتها هي أن تعود فتحمل الى الدنيا رسالتها العالمية لتعيد اليها روح الانسانية والعـدل ، ولكي تسحق تهاويل الظلم وشبح الاستعمار والاستبداد تحت الاقدام .

لقد هرمت (رسالة الرجل الا بيض) . . تلك الرسالة القاتمة السوداء ، وهاهي ذي تحتضر لتموت عمـا قليل الى غير رجعـة . انها رسالة الباطل الذي نفخته الحملات الصليبية حقداً ، وأوسعتـه حضارتنا الذهبية السائدة مغايظة وكربـاً ، فاتخـذ من رسالتـه سبيلاً للفتك ، وجعل من حضارته فوهة بركان . ولكن الحق قـد آن له أن ينقذف على الباطل فاذا هو زاهق ، يجر وراءه تاريخاً من

الخزي والقبائح .. يندى له جبين المدنية والعدالة ، والقيم الانسانية جمعاء .

ولكي يستبين لعقل العالم وسمعه مدى الفرق المتناقض بين الرسالتين أذن الله لتلك الرسالة المشئومة أن تخب في طرائق الدنيا حيناً من الدهر واذا بها تعتصر الارض لتغرقها في الدماء ، وتلتحف السحاب لتمطره ناراً ، وتداهم العالم بأنياب تفزع الوحوش في الأدغال ، واذا بالرؤوس التي سحقتها رحى حروبهم المتوحشة ، تفوق جيلاً بأكمله من الأجيال التي كانت تنعم هادئة سعيدة في ظل رسالة السماء ... رسالة العرب الى العالم .

نريد من هذه الوحدة أن ننفض عن شرقنا رجس هذا الشبح الأغبر الذي يريد أن يفترسنا بأنياب يزعم أنها لؤلؤ .

نريد أن نقيم دعائم العدالة ، وان ننشر روح الانسانية في كل بقعة من دنيانا . في فلسطين التي قضت (رسالة الرجل الابيض) أن يطرد عنها أهلها ، ويقذف بهم الى وحوش القفار ، يقتسمون معهم أديم البيداء ، ويشاركونهم في بقول الأرض واعشابها ، وبيوتهم ومساكنهم يأوي اليها أمام أعينهم أدعياء طفيليون على الحياة فضلاً عن تلك البلاد ! ... وفي الجزائر حيث الاطفال يغرقون في دماء آبائهم وامهاتهم .. حيث القلوب الطاهرة التي لم تخفق بغير الانسانية والرحمة تمزع وتمزق وتسحق ... حيث الكلاب المتوحشة المسعورة تلهث وراء الدماء الحارة لتلعقها ... كلاب

سامة كالأفعوان ، لم تخلق الا لتتمرد وتنبح على كل ما هو انساني مدني متحضر .

* * *

وبعد فليست هذه الوحدة تضامن ثلاثين مليوناً من العرب فقط ، ولا ثمانين مليوناً أيضاً فحسب ، وانما هي تضافر واتحاد ثلاثماءة مليون عربي آمن بالرسالة العربية الى العالم ، وقام بينه وبين العرب نسبها . تلك هي امة واحدة تنبض بقلب واحد ، وتجتمع في سيرها على صراط واحد ، أمة يؤلفها قلب كبير واحد ، وتنبعث في ثلاثمائة مليون جسم .

نريد جيلاً مؤمناً بالله

.. والحياد الايجابي لا تتم فلسفته الا اذا انبثقت من جميع نواحي حياتنا . والعقيدة ان لم تقم على كياننا المستقل قامت لا محالة على كيان غربي أو شرقي ..

(١)

لم يكن ذلك صوت وزير التربية والتعليم وحده ، حينما أعلن في مدرج الجامعة قائلاً : (نريد جيلاً مؤمناً بالله) لم يكن ذلك صوته وحده .

لقد كانت الحقيقة التي نادى بها التاريخ عبر الزمن ، وكانت الحقيقة التي نادى بها من قبل بناة المجد ، وكانت الحقيقة التي نادت بها طبيعة هذا الدهر .

حقائق ثلاث هي أركان هذا الكون كله ، نقشت هذه الكلمة في صفحة العالم : (لا بدّ للجيل الصاعد من الايمان بالله) .

وقامت ثورتنا تحيي حقائق الكون . وقام بطلها الكبير يصنع منها معجزات الحياة . وقام وزيرها المؤمن يقدّم للجيل في معركته سلاح الايمان .

لبيك أيها المربي المؤمن لبيك ، فسيكون أول سلاح هذا الجيل ايمانه بالله .

* * *

ألايمان بالله ، أو ألايمان بالمادة والدولار .

الأول سر عظمة هذا الشرق ، والثاني سرّ انهيار المبادىء والتضحية بالضمائر .

---

(١) كتبت هذه الكلمة ونشرت بمناسبة المحاضرة التوجيهية التي القاها وزير التربية والتعليم في مدرج الجامعة السورية .

والاثنان نقيضان لا يجتمعان ، ولكن لا يخلو عن أحـدهما أي انسان .

وسوس الاستعمار ينخر في هذا الشرق اول ما ينخر دينه وايمانه .

حتى اذا استفرغ جوفه ، وجعله هباءً ، حشا اهابـه بتقديس المادة والأهواء ، ثم تركه يخدمه في عملين : الوقوف على أعتـابه للقيام بواجب العبودية ، والخداع لمن حوله بمظهر الايمان الذي تركته جزذان الاستعمـار أجوف لا يُسمع منه الا رنين الدولار .

ولكن لا ... لن تجد بيننا نحن ايها الوزير الثائر عوداً يُنخر .

لبيك ايها الوزير لبيك ، فسوف يكون أول سلاح هـذا الجيل ايمانه بالله .

* * *

تقابل الايمان مع قوى ثلاث أمم عاتية وحشودها ، فانتصر الايمان الاعزل ، وأدبرت المادة الطاغية والقوى الباغية ، تتعثر بالخزي والعار .

وانتزعت القناة من مخالب الاستعمار ، وعادت الى اصحابها المؤمنين .

وأوصد الباب في وجه طوفان داهم من كتل العدوان على القاهرة وبور سعيد ، وبقيت بلاد المؤمنين للمؤمنين .

واجتمعت قلوب المؤمنين على قادة الايمان ، فاذا الوحدة بناء مشيد بعد أن كانت خيالاً في الأوهـام .

وحفظ الله وسلم ... فلم يستقر كيد الكائدين الا في نحورهم ، فماذا بقي بعد ذلك ؟

ان الذي بقي ، هو أن نشكر الله فنؤمن به ، وان ننشىء جيلنا في ظلال الايمان به .

لبيك ايها الوزير لبيك .. فسوف يكون أول سلاح هذا الجيل ايمانه بالله .

* * *

والحياد الايجابي لا تتم فلسفتـــه الا اذا انبثقت من جميع نواحي حياتنـــا .

والعقيدة ان لم تقم على كياننا المستقل ، قامت لا محالة على كيان غربي أو شرقي .

وحركة الفكر من المحال أن تلزم السكون .

ان لم يفتح أمامها طريق الايمان ، فهي ماضية لا محالة في سبيل الالحـــاد .

وما كان الالحاد ، وما كانت المادية في يوم ما الا خنجراً مسموماً لطعن الكيان العربي في أخطر مثله العليا .

وما كان الالحاد ، وما كانت المادية في يوم ما الا أعظم سد يقوم بيننا وبين تاريخنا المجيد .

ونحن انما نريد القوة التي تبني كياننا العربي ، والوثبـــة التي تصلنا بتاريخنا الغابر .

وماذا عسى أن يكسبنا هذه الوثبة والقوة سوى الايمان .

لبيك أيها الوزير المؤمن لبيك .. فسيكون اول سلاح هذا الجيل ايمانه بالله .

* * *

ووحدة العرب هالــة لا يمكن لها أن تتقارب وتستــدير الا اذا توسطها محور يجتذبها .

وما لم يكن المحور هو الايمان فلن يقوى على الجمع والاجتذاب..

وما لم يكن المحور هو الايمان فلن يتقضّى على الخيــانة التي تصدع الصفوف ...

وما لم يكن المحور هو الايمان فلن تتوحد الغاية والسبيل ...

يالعظمة وحي السماء .. ! لقد أمرنا قبل كل شيء بوضع المحور ، ثم أمرنا بعد ذلك بالالتفاف من حوله . ألم تمعن فيه اذ يقول :

(واعتصموا بحبل الله) ثم ... (ولا تفرقوا) .

لبيك ايها الوزير لبيك ... فما محور وحدتنا سوى الايمان بالله .

* * *

من هذا المسترخي في سكرته ، الذي يهذي قائلاً : الاعتماد على الله سلاح الكسالى والخاملين ؟ !

ان الاعتماد على الله جعل أربابه يناطحون الموت في مكمنــه ، وجعل أحدهم ينتشي ثورة وهو يقول للأعداء :

(لقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر) .

والاعتماد على الله أطارهم كالشرر في شرق البلاد وغربها ، حتى

قال ذلك القائد وقد أوغل في بلاد الصين ، واستوقفه اتباعه يحملونه على الرجوع :

(بثقتي بنصر الله توغلت ، واذا ذهبت الفرصة لم تنفع العدة) .

ان اعتمادنا على الله يا هذا ليس من نوع اعتمادك المسترخي المائع على آراء الغرب أو الشرق . ولكنه استمداد طاقة فوق طاقة ، وربط قوة الخالق التي لا تحدّ بضعف المخلوق وآماله الطامحة .

انه الايمان ياهذا ... الايمان .

وسيكون أساس كياننا وشعار حيادنا هو الايمان .

العروبة كما ينبغي أن نفهمها

« ... والرباط الذي يحزم وحدتنا العربية ليس هو النسب والعرق كما قد يبدو ، ولكنه الروح ، الروح التي تجلت في الأمة العربية منذ اربعة عشر قرناً ، تمثلت في معايير اخلاقية راقية، واشرقت من ثنايا طبيعة كريمة سامية وتميزت بالقيام باعباء اداء رسالة السماء ... »

في شرقنا العربي اليوم انتفاضات موفقة ، لعلّ التاريخ لم يشهد مثلها منذ قرون بعيدة . ولا مجال للشك في ان كل عربي في كل مكان ، يساوره اليوم شعور من التفاؤل القوي حول مستقبل العروبة ، ووحدتها الحقيقية المنشودة .

ولا بد لنا — في غمرة هذه الانتفاضات المنتصرة وهذا التفاؤل المشرق الكبير — من أن نكون على بينة من معنى العروبة ، العروبة التي ندعو لسيادتها ، واسترجاع عزها وسؤددها ، كما لا بد لنا من فهم الركائز الهامة التي تستند اليها العروبة في اجتذاب خطورتها ومجدها الدائم عبر التاريخ .

ولكي نكون على بينة من هذا ، يجب ان نتساءل عن النقاط التالية ، وان نجيب عليها الاجابة الصريحة الواضحة :

أولاً : هل يراد بالعروبة العرق العربي ؟

ثانياً : ما مدى اتصال فكرة العروبة بالاسلام ؟

ثالثاً : هل هناك علاقة ضرورية بين وحدة المبدأ ووحدة اللغة ؟

وفي اعتقادي ان الاجابة على النقطة الأولى من هذه النقاط الثلاث لا تستدعي اطالة في البيان . فما من ريب أنا نكون متناقضين مع أنفسنا ان ذهبنا نزعم اننا انما نقدس في العروبة السند أو النسب

المتسلسل الذي يربطنا أباً عن جد بربيعة أو مضر أو أي قبيلة عربية اتفق رواة التاريخ على اصالتها .

أجل ، أقول اننا نكون متناقضين مع أنفسنا ان ذهبنا الى هذا الزعم ، اذ أننا في الوقت الذي نفخر بعروبة ثمانين مليون عربي في بقاع شرقنا هذا ، وندعو هذه الملايين الى التضامن والاتحاد — اننا في الوقت نفسه نهبط بهذا العدد الكثيف الى بضعة ملايين يسيرة متفرقة في جهات هذا الوطن ليس لها الا صبغة الأقلية البسيطة بين الأغلبية المتكاثرة الأخرى .

ان هذا الوهم لم يقل به أحد ، ولم يخطر على بال أي شخص يعرف كيف يتحمس لفكرة القومية العربية ووحدتها . والرباط الذي يحزم وحدتنا العربية ليس هو النسب والعرق كما يبدو ، ولكنه الروح ... الروح التي تجلّت في الأمة العربية منذ أربعة عشر قرناً ، تمثلت في معايير أخلاقية رائعة ، واشرقت من ثنايا طبيعة كريمة سامية ، وتميزت بالقيام باعباء اداء رسالة السماء .

ولسنا نشك في ان هذه الروح كانت لها نواة كامنة في الدم العربي منذ العصر الجاهلي في مختلف مراحله ، منذ عهد الملوك الحميريين الى آخر يوم من أيام الجاهلية . ولقد كانت تدل عليها الطبيعة الانسانية المعتزة في كثير من عادات العرب وألوان حياتهم . ولعل هذه الحقيقة هي التي تستطيع أن تفسر لنا حكمة اختيار الاقدار للجزيرة العربية مهداً لرسالة السماء الى العالم . ولعل ذلك

أيضاً من بعض تفسير قوله عليه السلام : «... فانا خيار من خيار من خيار » .

ولكن يجب ان لا يفوتنا الى جانب هذا أن هذه الميزة الطبيعية في الدم العربي لم يأت الاسلام ليجعل منها مادة أو سبباً لتسامي العرق العربي على غيره لمجرد العرق ... ولكنه اتى ليجعل منها لقاحاً لطبائع الامم المختلفة الاخرى ، ومناراً يلقي به الضوء على معالم الهدى والاخلاق والصلاح أمام الجميع ، حتى اذا تهيأت عوامل السعي لدى الكل ، الغى تلك الميزة « العرقية » التي سخرها في أول الأمر من الاعتبار ، وقال على لسان نبيه « .. لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى» داعياً اياهم الى التسابق لتحقيق المبادىء الموحدة للجميع .

اذاً فليس صواباً ما يظنه البعض من اننا نعني في تقديسنا للعروبة تقديس عرق خاص من الأمم .. بل ان هذا لم يعنه تاريخنا العربي أيضاً في أي حين من الزمن منذ استقرار عصر النبوة وارتكاز دعائم المبادىء العربية في الشرق . ولكن العروبة هي هذه المبادىء... هي الاخلاق .. هي الطبيعة .. التي عرفت بها هذه الأمة منذ أقدم العصور ، وشاعت بين كثير من الأمم الاخرى بعد ذلك .

* * *

ولعل البعض ينكر علينا هذا التفسير للعروبة من الوجهة اللغوية . فالمعروف لغة أن العربي هو ذاك الذي يتكلم باللغة العربية في اصالة ، دون نظر الى ما وراء ذلك من المعنويات والمجردات ، بمعنى أن رجلاً

من الناس لا يستطيع ان يكون عربياً مهما عجنت طبيعتـه بالمبادىء والاخلاق العربية ، الا اذا عجن لسانه أيضاً بنفس اللغة .

ولايضاح الاجابة على هذا ، يجب ان تتساءل عن المظهر الذي تتمثل فيه المبادىء العربية التي نقصـدها ، ثم تتساءل عما اذا كان من الممكن لهذه المبادىء ان تطبع في النفس دون معرفة اللغة العربية .

ان هذه المبادىء تتمثل في الدستور العربي الأول (القرآن) ، ثم في شروحه الايضاحية من صحاح السنة النبوية . وما من شك في ان كل من اراد اكتساب البادىء الاسلامية والوقوف على القانون الآلهي لحياة الانسان على هذه الأرض ، لا بد من ان يجتـاز اولاً مرحلة فهم هذه اللغة وتعلمها . وليس بخاف أن الحفظ الآلي لهذين المرجعين لا يقدم للنفس ثمرة ، ولا يوصلها الى غاية .

وان لنا على هذا الكلام ــ فوق الشواهد العقلية ــ أدلة تاريخية كبرى . فكلنا يعلم أن تعداد العرب في صدر الاسلام لم يكن يتجاوز بضعة ملايين يسيرة ، أما عالمنا العربي هذا فقد كان خليطاً من معسكري الفرس والرومان . فكان من عمل الاسلام أن أخذ ينقل الى كل فرد من الذين دخلوا في الاسـلام مع مبادئه ، لغته ولسانـه . وذلك لضرورة فهم كلام الله تعالى واحكامه . واتسعت هذه الظاهرة بعد ذلك حتى أصبح معظم الاعاجم ، الذين كان يقوم بينهم وبين العرب حاجز منيع من العيّ وعدم التفاهم ، في أرقى مستوى من البلاغة والبيان العربي ، بـل وخلدوا في التراث العربي أدباً قيمـاً زاد في

ازدهار هذه اللغة وسجل فضلاً كبيراً في ذلك لهم ، كما ساهموا في ارساء أكبر قسط من دعائم الفقه الاسلامي وتحصين تراثه ، واخذت العجمة تتقلص من كل صعيد امتد اليه اشراق الاسلام حتى عاد امثال أبي حنيفة والزمخشري والغزالي والأمدي وابن الحاجب ــ كما قال ابن خلدون ــ عرباً ليس للعجمة نصيب الا في انسابهم .

وانك لتستطيع ان تلمس هذه الحقيقة في عصرنا هذا أيضاً حيثما ألقيت بنظرك من بلادنا الاسلامية المجاورة مهما كانت متوغلة في العجمة . فباكستان والهند واندونيسيا مليئة كل منها بالمعاهد الخاصة بتعليم اللغة العربية والثقافة العربية ، والنوادي والقاعات التي تلقى فيها المحاضرات والابحاث الاسلامية بالعربية تارة ومترجمة الى العربية أخرى تعج في كل جهة هناك . والمؤلفات العربية الاسلامية المختلفة التي تعج بها مكتباتها لا تكاد تستطيع أن تفرق بينها وبين أي كتاب آخر صدر في دولة عربية .

ولقد اتيح لي حينما زرت بعض المدن التركية في عام ١٩٥١ أن أجد نفس هذه الحقيقة لدى الشعب التركي . فالتركي المسلم الذي يرتفع قليلاً عن مستوى العامية ويتمتع بنصيب من الثقافة الاسلامية لا بد وان يكون ذا المام بلغته الاسلامية ، تلك اللغة التي هي المفتاح الوحيد للوصول الى كنوز التراث الاسلامي في احكامه وشرائعه ومبادئه .

ولذا فليس غريباً اذا قلنا ان العروبة التي نضحي في سبيلها ونعمل

على اتمام وحدتها انما هي ذلك النسب الذي يتصل بين جميع الأمم التي تدين لرسالة السماء ، رسالة العرب الى العالم .. هي المبادىء والاخلاق والطبيعة الكريمة السامية التي انطلقت من الجزيرة العربية وشملت ثلاثة ارباع سكان هذه الكرة .

ولا بد لكي تعود هذه الرسالة الى انطلاقتها الجبارة بعد ان ركنت في مخزن التاريخ حيناً من الدهر — من ان تنطلق مرة اخرى من نفس هذا العالم العربي وتقودها نفس الأيدي التي قادتها قبل اليوم .

واذاً فمن البديهي أيضاً ان نعلم ان هذه الرسالة العالمية لا تتأتى المساهمة في تحقيقها واحيائها ونشرها الا اذا سبقت ذلك وحدة في اللغة والمشاعر والاهداف .

وليس معنى هذا ان من أهداف العروبة انصهار الشعوب والالسن المختلفة في بوتقتها ، أو اذابة الآداب والحضارات واللغات الأخرى واضاعتها في عباب القومية العربية . كيف وان الدستور القرآني قد أقر اختلاف الشعوب والانساب ، ولم ينكر مشروعية قيامها ووجودها ، فقال « وكذلك جعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .. » ولم يقل يوماً ما « ليذوب الضعيف منكم في كيان القوي .. »

ولكن هذا التعارف الذي أمرنا به ، وهذه المساهمة في تحقيق المبادىء التي ندين جميعاً بها تقضي ان يكون لهذه الشعوب المختلفة محورٌ بيانيٌ تلوذ به وتجتمع عليه وتتعارف على صعيده . وليس

هذا المحور الا اللغة العربية التي اختارها الله لغة للدين ، ومن ثم فقد اراد أن تكون قدراً مشتركاً بين الأمم والشعوب جميعها ولا شك ان من وراء هذا القدر المشترك لكل أمة لغتها وعاداتها وآدابها وحضارتها التي تكسبها الشخصية المستقلة .

واخيراً فلسنا نقول ان وحدة العقيدة والاهداف لا تؤثر أو لا تغني . ولكن الذي يجب ان نعلمه هو أن وحدة العقيدة والهدف تحتاج الى حراسة وضمان ، كما تحتاج لسيرها الى عوامل تجعلها تتفاعل لدى نفوس اربابها وتجعلهم يتعاونون على تحقيق تلك الأهداف والعقيدة . وليست هذه العوامل وهذا الضمان سوى وحدة اللغة .

ولاشك ان هذه الأهداف حين تتبلور واضحة لدى الجميع ، فعندئذ لا يهبُ لتحقيق وحدة العرب ثمانون مليون عربي فحسب ، بل أربعمائة مليون نسمة قام بينهم نسب العروبة والفت بينهم مبادؤها واهدافها .

سياسة الدعوة في الاسلام

« .. والاسلام في كل عصر من العصور ، يعادي اشد العداء اسلوب القسر والاكراه في الدعوة ، لمن لم يدرس بعد حقيقته ويحصل على فكرة تامة عنه . فاذا لم يبق حائل دون الاتباع الا الاستكبار والعناد ، ارغمهم على اتباع ما ظهر لهم من الحق ، وجالدهم على ذلك بالسيف عدلا منه واحساناً .. »

أنزل الله شرعة الاسلام انقاذاً للانسانية مما لحقها من شرور الفوضى والاضطراب ، ومرداً للروح التي ضلت طريقها بين عواصف الأهواء والشهوات الى مكانها الأقدس الذي اختصها الله به من بين سائر مخلوقاته . فهو وحده كما نعلم الدين الذي يضمن للفرد والمجتمع أكمل خيري الدنيا والآخرة . يقيمه في ظلٍّ ظليل من النظام والسعادة في الدنيا ، ويحييه حياة خالدة في نعيم مقيم ورضوان من الله وجنات في الآخرة (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون) .

ولأجل ما اقتضته حكمة الله التي فطر الناس عليها ، من تفاوت في المدارك والعقول علماً وجهلاً ، واختلاف في الطبائع والنفوس عناداً واستسلاماً — فقد كان ضرورياً أن تتلون دعوة هذا الدين بين هذا الخليط من العالم باشكال مختلفة ، وان تتدرج في مراحل منظمة ، وتسلك لنجاحها طرقاً واساليب متنوعة .

وبرجوعنا الى دراسة جملة هذه المراحل والأساليب ، وامعاننا في طبيعة الأزمنة والاجواء التي كانت تختلف فيها وتجدد ، نجدها تتشكل بصور مراحل منظمة متسلسلة سائرة في ذلك مع اختلاف احوال الناس ومداركهم ، ومع ما تحرزه الدعوة من خطوات نحو القوة والاستقرار .

فأنت ترى أن أولى مراحل هـذه الدعوة انما كانت مجرد تبليغ واعلام ، ثم لا شأن لها بعد ذلك فيمن القى السمع وأصاخ ، أو ادبر واستكبر . وكـان اذ ذاك نزول قوله تعـالى (فاصـدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين) وقولـه (ان عليك الا البـلاغ) . حتى اذا تسامع الناس بشأن هذا الدين ، وارهف كل سمعه للدعوة الجديدة ، شرع النبي صلى الله عليه وسلم معهم في النقاش المنطقي والجـدال اللين ، والمحاججة السلمية التي تهدف الى كشف الحقيقـة ، وبسط الآيات والبراهين . قال تعالى (أدع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن) .

ثم لما وضح الصبح لكل ذي عينين ، وظهر الحق لكل ذي لب ، ولم يبق الا ايذاء الحاسدين ومناصبة المستكبرين ، أذن الله لنبيه أن يقابل ايذاء بايذاء وقتالاً بمثله . فقال سبحانه (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله على نصرهم لقدير) .

ثم كتب الله لدينـه النصر ، فاستجمع كيانـه ، ولمعت في أرض الجزيرة بارقة شأنه . فقفزت الدعوة اذ ذاك الى مرحلتها الأخـيرة ، وأمر الله بقتال كل من بان له الحق فأصر على العناد وظهر لـه سبيل الهدى فانحاز الى الضلال ، ما لم يكونوا أهل كتاب يؤدون الجزية(١)

---

(١) بقاء اهل الكتاب في بلاد المسلمين ، واندماجهم بينهم يتضمن اسلوبا نفسيا تدريجيا للانطباع بحب الاسلام والدخول فيه وذلك بما يلمسونه من عدالة الاسلام في الحكم وشتى نواحي الحياة . اما الجزية التي تؤخذ منهم فهي مقابل الزكاة التي تؤخذ من المسلمين .

وكان اذ ذاك نزول قولـه تعالى : (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ما حرم الله ، ولا يدينون دين الحق من الذين اوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزيـة عن يد وهم صاغرون) . وقال (يا ايها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) وقال (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الـدين كله لله فان انتهوا فان الله بمـا يعملون بصير) وقال (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجـدتوهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصـد ، فان تابوا واقاموا الصلوات فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم) وعندئذ قام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأمر الله وقد أعذر لنفسـه قائلاً : (امرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الاّ الله فاذا قالوها فقد عصموا مني دماءهم الا بحقها) .

تلك هي مجمل سياسـة الدعوة في الاسلام والحلقـات العامة لمراحلها . ولقد جرى على ذلك الخلفاء الراشدون ومن بعدهم ممن شاؤوا أن يتبعوا سنة الرسول صلى الله عليـه وسلم في ذلك ، وان يتمسكوا بحقيقة التعاليم الاسلامية الصحيحة .

ففي الحين الذي كان الاسلام انضج ما يكون قوة وأوسع رقعة وذلك في خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه نجد كيف كانت جل فتوحات المسلمين ووقائعهم مع مجاوريهم من الفرس والرومان بتعرض وابتداء منهم . لقد كانوا يدعونهم بالحكمة والموعظة الحسنة وينشرون

امامهم البراهين والحجج ، فان رأوا أذناً صاغية ورضاً واطمئناناً ، والا الزموهم احدى اثنتين : القتال الى أن يظفروا بالفوز أو الجنة ، أو الجزية عن يد وهم صاغرون ، الا اذا رأى الامام أن المصلحة العامة تدعو الى الصلح معهم ...

وبالرجوع الى أي وقعة من الوقائع التي قامت في مثل عهده نجد برهان هذا ودليله . ففي القادسية التي كان يدير أمرها سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه أرسل هذا القائد رجالاً من جنده الى يزدجرد ملك الفرس اذ ذاك ــ وذلك قبل اشتباك القتال بينهم ــ وكان من بين هؤلاء الرجال النعمان بن مقرن وقيس بن زرارة والاشعث بن قيس وغيرهم . فلما دخلوا على يزدجرد سألهم قائلاً : (ما الذي جاء بكم ودعاكم الى غزونا والولوع ببلادنا ؟ أمن أجل أنا تشاغلنا عنكم اجترأتم علينا) فتكلم النعمان بن مقرن ، وقال له فيما قال : (. . فنحن ندعوكم الى دين حسَّن الحسن وقبَّح القبيح ، فان أجبتم الى ديننا خلَّفنا فيكم كتاب الله وأقمناه ، على أن تحكموا بأحكامه ، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم . وان بذلتم الجزاء قبلنا منكم ومنعناكم والا قاتلناكم) .

وفي عهد الصدّيق أبي بكر أيضاً نجد خالد بن الوليد وقد أرسل أمراءه بعد فتح الحيرة الى شواطىء دجلة ، يتعرض لقتال من هناك ممن سمعوا بالدعوة وعاندوا الحق الذي بان لهم فيها ، وكتب الى ملوك الفرس كتاباً قال فيه : (الحمد لله الذي حلَّ نظامكم

وفرق كلمتكم . وبعد فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ، والا كان ذلك وأنتم كارهـون على أيدي قوم يحبـون الموت كما تحبـون الحياة) . وكتب الى المرازبة أيضاً كتاباً مثل ذلك .

* * *

بعد هذا أقول : ماذا كان ياترى من شأن الاسلام واتساعه لو أن هؤلاء الذين شادوا الدين بهـذه الطرق العادلة التي ذكرناهـا ـ عدلوا عن ذلك ، وجنحوا الى مثل ما يراه أناس في عصرنا هـذا من أن الاسلام قد ترك الحرية التامة في اختيار الأديان ، وفي الاقلاع عن أيهـا اراد الانسان والتمسك بأيها شاء ، وأن هـذه الحروب الاسلامية انمـا قامت جميعها لمجرد دفاع عـن نفس أو ردّ للأذى فحسب ؟ !

أقول لو جرى على هذا قادة الاسلام وولاته سابقاً ـ والنفوس كما تعلم معظمها مجبـول على الاستكبار على الحق ، والعنـاد في الباطـل والتعشق للهوى ـ فأكبر الظن أنه لم تكن رقعـة الاسلام لتصل من الاتساع الى معشار ما نراه اليوم ، وان كنا نعتقد ان كل من يتبع هدي عقله دون عناد واستكبار لا يحتاج للتمسك بالاسلام الى غير عرض المبدأ عليه وتبليغه اياه . ولكن هذا الانصياع قلمـا يجد سبيله الى أفئدة الحكام والقادة الذين كانوا قد اعتادوا الظلم لشعوبهم واستلانوا الجثوم على صدورهم ، واستمرؤوا الاغتصاب لحقوقهم .

وأنا ، فلعمري لا أدري ما الذي يحمل هـؤلاء على أن يتناسوا كل ما سقناه من أدلة فيتجاهلوها ، حتى يقيموا لأنفسهم المعاذير في أن يقولوا قولتهم هذه عن الاسلام وشأنه في الدعوة ! كل ما أفهمه سبباً في ذلك هو أنهم يحاولون ترضية المستشرقين وأولئك الغرباء عنه الذين يظلون يحومون من حوله حتى يجدوا في جهة منه ملمساً لنقد أو محطاً لعيب . . .

ولقد عرف أولئك الاعداء ، الذين لا يعادون شيئاً عداءهم لهذا الدين وأهله ، كيف يحيكون المكيدة بخبث ويحكمون الشر بليل !. لقد استشكلوا أن يكون الدين الاسلامي في الارض دعامة سلام وأمن اذا كان يقسر الناس على اتباعه قسراً ويحملهم على ذلك حملاً ، ليوحوا من وراء حجاب بالحل الذي يشتهونه لذلك الاشكال ، ثم ليتلقفه ويتمسك به كل مفتون بالغرب ومعجب بنهجه وأفكاره . وهكذا يكونون قد وضعوا بواسطة رسلهم بيننا سمّاً بين قواعد الاسلام التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها تنزيل من عزيز حميد .

ولقد كان من الواجب علينا أن نمعن قليلاً ، لنعلم أن هذا الاشكال غير وارد من أصله حتى تتكلف حلاً له ومخرجاً . فالاسلام في كل حين دين السلام والأمن وهو بمقتضى هذا يقسر كل من اتضحت له حقيقته ، وقام أمامه برهانه ، وظهرت لعقله دلائله ــ على الاصاخة للحق والانضواء تحت أوامره وأحكامه والاستسلام لما

جاءه من عند الله . أي فهو لا يكره الناس أن يلبسوه وهو في نظرهم باطل ، ويتمسكوا به وهو في عقيدتهم لغو . ولكنه يضع أمامهم البراهين ، ويبسط لهم الآيات ، ويقيم بين يديهم الحجج ، حتى اذا ظهر الحق لكل ذي لبٍّ ظهور الشمس لكل ذي عينين — وأيُّ ذي عقل تبقى لديه غاشية من لبس بعدما أنزل الله ما أنزل من بينات وآيات وأدلة — وحتى اذا لم يبق حائل دون الاتباع الا الاستكبار والعناد وركوب الرأس على الباطل ، أرغمهم على اتباع ما ظهر لهم من الحق ، وجالدهم بالسيف على ذلك عدلاً منه واحساناً .

وهذا المعنى في الواقع هو رأس المعاني التي حملت الدعوة الاسلامية في سنيها الأولى على أن تقتصر على مجرد ايضاح البراهين ومتابعة الحجج ، بينما تتروى العقول ويتضح لها الحق . بل والاسلام في كل عصر من العصور يعادي أشدَّ العداء أسلوب القسر والاكراه في الدعوة ، لمن لم يدرس بعد حقيقته ويحصل على فكرة تامة عنه . ألم تر الى رسول الدعوة عليه السلام كيف بقي ثلاثة عشر عاماً يتلقى ايذاء قريش وسفاهتهم ، وهو ماض في أسلوب واحد من الدعوة . . . أسلوب التبيين والبحث المنطقي والارشاد الى سبيل العقل ، لا يزيد على ذلك الا قوله : اللهم اغفر لقومي فانهم لا يعلمون . ثم ما جاءتهم مرحلة القسر والاكراه الا بعد أن علموا ..

ثم ليس شأن هذا القسر والاكراه الا كشأن القصاص الذي لا يخفى على أحد ، وما عمله الا كعمله تماماً . فكما يصح لنا أن

نقول : ان القصاص الذي هو القتل في بعض الأحيان ، هو وحده السياج الذي يحوط الأمن والسلام ويحفظ قيم الحياة كما يقول الله تعالى ، لا ريب أنه يصح لنا من باب أولى أن نقول : ان الضرب على يد كل مستكبر ومعاند عن اتباع الحق في دولة الله تعالى هو وحده السبيل الى ارتكاز واستقرار ما يحمله الاسلام للعالم في طياته من أسباب السلام والنظام والسعادة .

ذلك أنّ القاعدة في المسألتين واحدة ، وهي أن التضحية بالفرد في سبيل حياة الجماعة ونظامها طريق لحفظها وسبيل لرعايتها . بل وما من ذلك بدّ ان أريد أن يصار الى أخف الضررين وأقرب المكروهين . وأيهما أخف وأقرب ؟ : الشرك بالله والقاء قوانينه وأحكامه التي فرضها علينا ، أم القتل لمن لم يفارق ذلك عناداً واستكباراً . اللهم ليس لنا أن نقول في هذا شيئاً بعدما أجاب الله عن ذلك قائلاً : « واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل » أجمع عامة المفسرين على أن الفتنة هي الشرك .

أما الآية التي يتذرع بها المخالفون لهذا وهي قوله تعالى : « لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغيّ » فلقد اشتهيت أن أعثر على مفسر واحد من المتقدمين أو المتأخرين قد جنح الى المعنى الذي فسروها به فلم أعثر . وكل ما قيل في تفسير هذه الآية ــ على اختلاف بعض الصحابة في ذلك ــ يدور حول ثلاثة معان ، وها أنا أذكرها ايضاحاً وتحريراً للأمر :

المعنى الأول ، وهو ما ساقه معظم المفسرين في مستهل كلامهم عن معنى الآية ورجحوه على غيره ، هو أن « لا » في قوله « لا اكراه » نافية ، والجملة خبرية لا انشائية . والمعنى على ذلك : لا يقبل الله من العبد دخولاً في دينه على كره ، والرضا به ظاهراً في حين أن ضميره مدبر عنه وخارج عليه . اذ انه دين مكانه النفس والعقيدة ، فما لم يكن كذلك فهو عند الله لغو لا قيمة له ولا يعتد به . ولكن قد تبيَّن الرشد من الغي ، وظهر الحق من الباطل ، فلا عذر في أن يكون المرء مكرهاً لا يطاوعه عقله وقلبه .

المعنى الثاني : وهو ما رواه عبد الله بن عباس ، أن هذه الآية انما تعني أهل الكتاب . وذلك انهم لا يجبرون على الاسلام وحده ، اذ لهم أن يؤدوا الجزية مع بقائهم على دينهم وعقيدتهم . ويستند بعض القائلين بهذا الى ما روي من سبب نزول الآية ، وهو أن انصارياً ألزم ابنين له بالاسلام وكانا قد تنصرا قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فانزل الله ذلك في شأنه اقراراً له على الجزية .

المعنى الثالث : أن الآية عامة في حكمها لأهل الكتاب وغيرهم ، وكان ذلك في مستهل ظهور الاسلام ، ثم نسخت بعد ذلك حينما قوي المسلمون ولم يبق على الغي الا المكابرون والمعاندون . ويرى هذا من الصحابة عبد الله بن مسعود ، والآية على هذين المعنيين انشائية و (لا) ناهية .

ثم اني رأيت من يستشهد أيضاً بقوله تعالى : « وقل الحق من

ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر انّا أعتدنا للظالمين نـاراً أحاط بهم سرادقها • الآية » ولأجل أن تتم لهـم صورة الاستشهاد يبترون الآية من نصفها ، ويقفون بها عند قوله « فليكفر » متناسين ما لها من تتمة تنادي بالمعنى المراد للآية • • هذا المعنى الذي لا يخفى على أي خبير ومتذوق لبلاغة الكلام وأصوله • وهو التهديد الشديد بهذا الاسلوب القوي المشرق الذي طالما يتميز به كلام الله تعـالى • وذلك طبقاً لما يقوله أيضاً في معنى الآية كل المفسرين ، ولذلك فهي لا تدل على شيء من الخِيَرَةِ والحرية في الدين •

وبعد فان الحق في دين الله بيّن • وقوانين الاسلام في أحقيتها وسلامتها مـن النقص لا تحتـاج الى الزلفى والقربى من أعـدائه المستشرقين وغيرهم •

بيني وبين دكتورٍ فاضل

(.. فقلت ولكني سأتعب نفسي وأنشر هذا الذي تقول . وحسبي انتصاراً أن يسجل التاريخ ويشهد أن حضارة القرن العشرين ظلت دون ارتفاع في كثير من مظاهرها الى مستوى العقل وحقيقة التفكير الحر)

قال لي استاذ دكتور ــ وهو يشرح نظرية له في معالجة الجرائم الجنسية ــ انني أرى من الخطأ معاقبة هذا النوع من المجرمين بالتعذيب والتنكيل كغيرهم من الجناة والآثمين . فذلك يربي في نفوسهم شعوراً مختلاً نحو مجتمعهم ، ومن ثم فلا يكاد يستقيم لهم سلوك ، ويخرج بذلك أمرهم عن طوق المعالجة والتربية .

قال : وخير من ذلك شيء واحد ، هو أن نعهد الى المجرم بضحيته ونكلفه بها ، ونلزمه بالسكون اليها الزاماً ، ونجبره على ذلك اجباراً . وبهذه الطريقة فقط يضمحل شأن الجريمة ، وتشيع روح الأسرة .

قلت له : ولكن هل تعتقد أن هذا حقاً يشيك سبل الجريمة ويضيقها ، أم يمهّد لها ويوسع منها ؟

قال : بكل تأكيد ، هو حلٌ يشيكها ويعقدها ، بل وأخيراً يقضي عليها .

قلت : ولكن الذي يتبادر الى العقل أن هذا الحل يقرب ما بعد من الوسائل لارتكاب الجرائم الخلقية ، ويلين ما استصلب في طريقها . فهذا الذي يُقبل ــ وقد قرر في نفسه جريمة يسعى الى تنفيذها مع فتاة من فتيات أحلامه ــ اذا أدرك أن العقاب الذي سيتلقاه على جنايته لا يعدو أن يكون قراراً باباحة تلك الجناية له ،

وتقديم ما تصبو اليه نفسه تقديماً قانونياً مباحاً ، اذا أدرك هذا فما الذي سيصده عن ارتكابها ويحذره من عواقبها ؟ بل ولماذا لا يندفع نحو هذه الجريمة بجرأة نادرة كلٌ من طلب يد فتاة من أهلها فامتنعت أو امتنعوا ، ليجعلهم بذلك تحت الأمر الواقع ، وهو عالي الرأس مفتول الشنب ؟ !

ثم هل يكفي لبناء الأسرة ضم رجل وامرأة الى بعضهما بحبال الجبر والالزام ؟ وأين الحب الـذي يجب أن يشيع بينهمـا ؟ وأي ذرّية هـذه التي ستنشأ عـن انسانين متنافرين متـدابرين جمعهما الاثم والاجرام ؟

ثم هب أن ما تقول صحيح ، ولكن لماذا لا تحاول أن تعالج هذا الموضوع معالجة وقائية ، وتبحث عن الطرق السليمة لاقتلاع اسباب الجريمة من أصولها ، وتريح المجتمع من عناء التفكير في تداركهـا ونوع عقابها ووجه القصاص فيها ؟ وألا ترى معي أن من أهم اسباب الجرائم الخلقية هذا الاختلاط الفاحش ، وهذا التكشف الذي زاد على التبرج ، وهذا التعري الذي هان أمامه ما كنـا نهلع لرؤيته ، ونخشى أن يدركنا من ذلك عقاب من عند الله ؟ !

فقال : اني أوافقـك على نصف ما تقول ، ولكني أخالفـك في النصف الآخر . فأنا معك في أنه من الواجب البحث عن علاج وقائي للقضاء على أسباب الجريمة . . ولكني أخالفك في أنّ الاختلاط من جملة هذه الاسباب . بل وأنا شخصياً ممن يرون أن الاختلاط

من شأنه أن يضعف من النهم الجنسي الذي لا يكون ٣٠ ٪ منه الا وهماً أثاره وكثفه هذا البعد بين الجنسين ، وضرب هذه الحجب والستر بينهما . . ! وساق لي مثلاً لذلك الاختلاط في القرى ، وكيف أن نسبة الجرائم الخلقية تكون هناك أقل .

فقلت له : ولكن هناك فرقاً شاسعاً بين المدن والقرى. فالاختلاط في المدن اختلاط حربي مسلح ، وهو في القرى اختلاط سلمي أعزل . والاختلاط في المدن أساسه اظهار الزينة وعرض الفتنة ، وهو في القرى أساسه التشمير للعمل المضني ، والانهماك في مشاق الفلاحة والزراعة . والاختلاط المدني الحاضر لا تتراءى فيه أي قابلية لبعث هذه الروح التي تصفها ، والاسلوب الذي ينهج عليه لا يبشر بأي فائدة مما تقول .

فالفتاة حينما تريد أن تبرز الى الشارع ، أو تظهر في الجامعات أو تنتقل بين الوظائف والمحلات . . لا يمكن أن تخطو الى شيء من ذلك ما لم تُعدَّ للفتنة عدَّتها ، وتهيأ لاصطياد القلوب أسبابه ، وتخلع حقيقة وتلبس أخرى . وياخيبة تلك التي تعود من سعيها أخيراً دون أن تصطاد فؤاداً أو تكوي نفساً أو تقع في أمنية انسان على الأقل . ولئن شذ عن هذه الحقيقة البعض ، فانها والله القاعدة للأغلبية العظمى منهن ، وكلنا يعلم أن القوانين حينما توضع انما يراد بها اغلاق منافذ الضرر وان تضاءل المنفذ وكان ثقباً صغيراً . . .

والفتى الذي يبرز الى المجتمع . . هو أيضاً لا يكاد يخطو ذات

اليمين أو الشمال حتى يضفي على نفسه من زينته ويزيد الى شبابه شباباً ثانياً من التصفيف والتنميق ، وحتى يتأكد من اغرائه ولطف شخصيته ، وحتى يستعرض شكله في المرآة طويلاً بعين الفتيات اللواتي سيرمقنه . . . وياشؤم ذاك الذي يرجع من مغامرته بعد هذا ، دون أن يسلب قلب أي أنثى أو يرى كيف أعجبت به العيون النجل على الأقل . . ولئن شذ عن هذا بعضهم ، فهي والله القاعدة السارية لدى معظمهم خصوصاً الشبان الجدد الذين تخرجوا من معهدي السينما والروايات ....

هذا هو الاختلاط المدني عندنا ، مباراة ثائرة ، وصراع عنيف لا ينتهي الا بتحطيم القلوب ، وتصديع الفكر ، وهدم الأسر . فمِنْ أين تبعث هذه الروح التي تتفلسفون عنها ، وكيف تظهر ، ومتى ذلك ؟!

وهنا ابتسم الدكتور . . ثم دنا الي وقال :

اسمع ، ان هذا الذي تقول ، لا يشك عاقل أنه حق ، وهي حقيقة مفروغ منها . ولكن من الخير أن لا تتعب نفسك في أمر لن تجد من هذه المدنية الجارفة ، خضوعاً له . لأن أحداً لن يستطيع مبارحة نعيمه وهواه في ظل حضارة القرن العشرين ، الى تقاليد عفّى عليها الدهر والقدم !

فقلت : ولكني سأتعب نفسي بذلك ، بل وسأنشر هذا الذي تقول . وحسبي انتصاراً أن يعترف أرباب هذه المدنية وأنصارها ، أنهم انما يسعون الى تحقيق أهوائهم وشهواتهم الساذجة على حساب

المنطق وتحت ستار العقل . وحسبي أن يسجل التاريخ ويشهد ، أن حضارة القرن العشرين ظلت دون أن ترتفع ـ في كثير من مظاهرها ـ الى مستوى العقل وحقيقة التفكير الحر (١) .

(١) ليس هذا الدكتور شيئاً خيالياً وضعناه لنجري على لسانه هذا البحث ، وانما هو حوار واقعي ، والدكتور معروف وموجود في القاهرة ، وهو من اقطاب المدنية الحديثة ...

على رِسلكِ أيتها الفتاة

(.. لا يا حضرات القضـــاة . ان الشرف
لا ينتصر له عن طريق امتهانه ، والخلق لا يدعى
اليه عن طريق تقذيره وخنق روادعه ..)

(١)
على رسلك أيتها الفتاة ، فما أنت التي ينبغي أن تنتحر .

على رسلك أيتها الفتاة ، فما أنت الا ضحية مظلومة ، وجنون من العدالة أن تدع الموت للمظلوم فوق نكبته ، وتقدم الحياة للظالم جزاء جريمته .

أجل والله أيتها المسكينة ، فما أنت الا ضحية بريئة ، تسلّل اليك الكيد عن طريق مشاعرك الحساسة ، وعواطفك الرقيقة ، وقلبك الطاهر . ومن منّا لا يدري أن عاطفة الأنثى أقوى من ارادتها ، وشعورها أدق من تفكيرها ، ووجدانها أسمى من بصيرتها ؟

وهل كان في طوقها أن تحقق معجزتها في العالم ، فتغذي النشء من ينبوع حنانها ، وترويه من رحيق حبّها ، وتربّيه في ظلّ عواطفها ، لو لم يكن في طبيعتها ذلك ؟ ثم هل كان يحوطها الاسلام بكل ما رأيناه من رفق ، ويعوذها بكل ما عرفناه من صون وحفظ ، الا لأن شأنها كذلك ، أي ليس في قلبها غير معنى الطهر ، وفي المجتمع قلوب ماكرة . وليس في صدرها غير الحنان والعطف ، وفي المجتمع ذئاب كاسرة .

---

(١) روت الصحف ان شاباً صبّ عاره على احدى الفتيات بعد ان خدعها بوعود الزواج ، فلما لم تجد المسكينة سبيلا تطهر به حياتها من ذلك العار ، أصرت الا ان تطهر نفسها من تلك الحياة واقدمت على الانتحار ، ثم تداركها القدر في اللحظة الاخيرة ....

أيتها الفتاة ، تعالي قبل أن تنتقمي من نفسك اذ أعجزك تطهيرها فانتقمي من ذلك الذي رشقك بالعار .

تعالي فتقدمي الى قاعة الشرف والعدل ، القاعة التي أرست أركانها شرعة السماء ، ورفع عمادها اباء الشرف . قفي هناك بقدم راسخة ثم تكلمي . . . تكلمي ، فستجدين لصوتك دويّاً ينبث في أرجاء الارض ، ويتعالى الى جو السماء ، ويهز أركان الدنيا .

أما خصمك المتهم ، فهو شبح المدنية الحديثة . . . وستجدينه متمثلاً في مظاهر ثلاثة : مظهر ذلك الفتى الأرعن الداعر ، الذي اتخذ من اسم تلك المدنية لجريمته مخلباً وناباً ، ومظهر أسرتك التي استعذبت طعم تلك المدنية ، فغذتك بعقارها ، وانبتتك بمائها ، ثم في مظهر هذا المجتمع الذي سهت عينه ونامت حتى تسلل هذا الشبح الى أرجائه ، وتغلغل في شتى مظاهره ، فكم من أسرة هدّمها ، وكم من سعادة أطفأها ، وكم من حياة قوضها .

وسيقوم الدفاع عن هذا الخصم فيتكلم .. سيتكلم بثلاث كلمات انطبلت من تكرارها آذان الدنيا ، وضجت من التسبيح بها الأحياء والأموات . سيقول : التقدم ، الرقي ، الحضارة . التقدم ، الرقي الحضارة . وهكذا ... كلمات تفسيرها في تكرارها ، وشرحها في التغنّي بها . ولا على هذه الكلمات أن تحرق بيتاً أو تميت فضيلة أو تزلزل كيان أسرة ، ما دام أنها : التقدم ، والرقيُّ ، والحضارة .

وستقوم بعد ذلك (النيابة) ... وستهدر على سمع العدالة

بكلام طالما ردّدته شرائع السماء ، وآمنت به عقول من في الأرض .
وسيكون من بعض كلامها ما يأتي :ـ

ـ يا قضاة الأمة وحماة الشرف :

ان مشكلتنا هذه أجلُّ من أن نفتديها بألفاظ ... ولو اتيح لنا أن نحلَّ مشاكلنا دائماً بظلِّ الألفاظ ، اذاً فما كان أغنانا عن عقول المفكرين وقوانين المشرعين ، واذاً لكان لنا في كل كلمة لمشكلة حلاً !

اننا يا حضرات القضاة ، أمام قصة انسانية بريئة .. طالما انسحقت بين ماضغي هـذه المدنية الحديثة ، فمزقت عنها جلباب كرامتهـا ، وأطفأت لها رونق طهارتهـا ، ثم لم تجد بين شيئي من ألفـاظ تلك المدنية ما يواسي ضرها أو يرحم نكبتها . فلم تر بدّاً من الالتجـاء الى ظلام الموت وأمواج العدم ، لتتخذ من ذلك جلباباً يستر عريها ، وطهوراً يزيل عارها .

ألا فاسألوا البحار المتلاطمة ، كم رسا في قاعها من جثث مثل هذه الضحية التي قذفت بها يد هذه المدنية اليكم . واسألوا الليالي الحالكة كم اختفى وراء سدفتها من أمثال هذه البائسة المائلـة بين يديكم . واسألوا هذه البيوتات والأسر ، كم دهاها من زلازل ، وسال في جوانبها من دماء ، ودار فيهـا فلك الموت على ضحايا مظلومـة بريئة ! كل ذلك بفضل هذه المدنية التي تقمّصتها وحوش الشهوة وكلاب الرذيلة .

يا حضرات القضاة :

أحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أننا قد أخطأنا في شرح هـذه المدنية التي يتغنى الناس بها .

وأحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أنّ اختلاط الجنسين في أكثر مظاهر هذا المجتمع لم ينبت لنا الاّ قتاداً وأشواكاً من مثل هذه الضحية الماثلة أمامكم .

وأحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أن الفاظ الحب والشعر والغرام بين فتى وفتاة ، ان لم تشرف عليها عقدة النكاح ، كانت ألفاظاً ليس معناها الا المكر والخديعة والاجرام .

وأحسب أنه لم يعد يخفى على أحد أنا أخطأنا كثيراً حينما عرّفنا الفتى الاجتماعي بذلك الشاب اللبق الخبير بفنّ مغازلـة الفتيات ، الذي يعرف كيف يحادثهن ويجاذبهن ويراقصهن . وحينما عرّفنـا الفتاة الاجتماعية بأنهـا التي بلت طبائع الشبـان واستحوذت على طريق مداورتهم واللعب بعقولهم .

وأحسب أن قد آن لنا أن نترفع عن الانصات الى هذيان المتشهين المتفلسفين الذين يقولون : ان اقامة الحواجز التقليديـة بين الجنسين يدعو الى الكبت .. وأن مثل هذه الضحايا لا بدّ من تقديمها لأننـا في فترة انتقال ... !

انهم يا حضرات القضاة يريدون أن نرضى بدفع الثمن الذي دفعته أوربا بفترة انتقالها . لقد كان هذا الثمن هو آلاف الأمهات اللواتي لم يعرفن في حياتهن معنى الزوج ، وآلاف الاطفـال المشردين الذين

لم يعرفوا في حياتهم معنى الابوين ، وآلاف العائلات التي لم تعرف في حياتهـا معنى الشرف والعفاف . على أن فترة الانتقال عنـدهم لا تزال باقية ، والثمن لا يزال يقدم ويدفع !

يقولون ان المحترق الظمآن الى الماء ، اذا اتخذ مكانه بين ينابيع من الماء البارد الزلال بردت حرقته وزهد في الماء وزال ظمأه .

نعم ان هذا صحيح ، ولكن أيّ حمار يجهل أن انطفاء ظمأه انما جاء من انتفاخ بطنه بالماء الذي يجري من حوله ؟ اللهم الا أن يكون هذا الحمار مثل ذلك الأحمق الذي قالوا انـه جاء من البادية جائعـاً تتقلص أمعاؤه الخاوية من الجوع ، فوجد خبازاً يقف على اكوام من الخبز الجيّد الساخن في هدوء تام ، دون أن يلتهم أو يأكل شيئاً منه ، فعجب منه الأحمق وهو يتهافت على الخبز ، وقال في نفسه : ان هذا الا ملك كريم ، يشبعه الدعاء والتسبيح . أي تماماً كملائكة أوربا الذين طهرتهم كؤوس هذه الفلسفة عن الشهوات والأهواء ... !

لا يا حضرات القضاة ، ان الشرف لا يُنتصر له عن طريق امتهانه، والخلق لا يُدعى اليه عن طريق تقذيره وخنق روادعه .

انني ياحضرات القضاة ، أطالبكم باسم شرعة السماء التي كلنا ننضوي تحت لوائها ، وباسم شرف العروبة الذي يجري أواره في دمائنـا ، وباسم هذه الفتاة ودموعهـا — اطالب باسم ذلك أن تقلموا مخالب هذه المدنية وأنيابها ، وأن تصححوا ما التبس علينا من الفاظها ، وأن تلبوا داعي السماء فتقيموا أحكامه التي خضعتم لسلطانها .

* * *

ايتها الفتاة : بعد أن يجلس النائب العام وينتهي من كلامه ، وبعد أن يتداول القضاة الحكم فيما بينهم ، اما أن تنتصر العدالة فيحكم لها ، وحينئذ فارجعي الى بيتك عالية الرأس كريمة النفس • واما أن تعود المدنيـــة فتنتصر وترجع الى عسفها واضطرابهـــا ، وحينئذ ••• وحينئذ أرى أن تعودي الى ذلك المكان الذي وقفت عليه لتنتحري •• فما في بقائك في المجتمع الذي سحق كرامتك ومزق طهرك من سعادة وأنس •

النفوس الذليلة

.. انني قد ارى في وحدتنا الجديدة بريقاً
من التفاؤل والأمل . ولكن هذا البريق لا يمكن أن
يدنو فيلامس نفسي ما دام في شعوبنا عرب
مستعجمون ومسلمون متفرنجون ..

كنت راكباً البحر في سفرة لي من دمشق الى القاهرة ، وكان الى جانبي في الصالون ثلاثة من الشبان ، عرفت أنهم من بعض هؤلاء السواح الاجانب . فقد كانوا لا يتكلمون فيما بينهم الا باللغة الأجنبية ، ولم يكن يتبيَّن في نوع حركاتهم ، وشكل لباسهم ، وغطاء رأسهم ، الا ما يدل على أنهم أجانب غربيون لحماً ودماً .

ولكن كم كانت دهشتي بالغة حينما وصلنا الى ميناء الاسكندرية، واجتمعنا حول رجال الأمن لختم جوازاتنا . فقد تبيَّن اذ ذاك أن أولئك الشبان الأجانب لم يكونوا الا عرباً مسلمين مثلي ومثلك ... يعيشون في بلاد عربية شرقية مسلمة ! !وأسفت أشد الأسف ، وتأثرت أبلغ ما يكون التأثر . ثم مضت أيام ونسيت الحادث .

وبعد مدة .. صليت الجمعة في جامع قلعة محمد علي بالقاهرة ، فرأيت هناك ثلة من الاجانب الغربيين يستعرضون ما في الجامع من آثار وتحف ، وقد حفَّ بهم المترجمون والمعرفون ، لأن احداً منهم لا يعرف اللغة العربية .. ولكن كم كانت دهشتي بالغة حينما رأيت أحد هؤلاء الذين يجهلون العربية يدنو بقرينته الى لوحة في المسجد ، فيقرأها أحسن ما تكون القراءة ، ثم يلتفت اليها فيترجم لها ما قرأ أحسن ما تكون الترجمة والبيان !

قفزت الى ذهني في تلك اللحظة قصة اولئك الشبان العرب

المسلمين ، وعـادت الى خيـالي صورتهم تلك في تفرنـج سحنتهم وتمشدق ألسنتهم • ولا يعلم الا الله مقـدار الألم الذي أطبق عليّ من ذلك ، ولا يعلم الا الله مرارة الاسف الذي تلبس مشاعري مـن مقارنة هذه الصورة بتلك •

أولئك عرب مسلمون ، يعيشون في بلادهم وبين اخوانهم ، ثم لا ينظرون الى لغتهم التي هي روح كيانهم الا نظرة ازدراء تجعلهم يتجاهلونها ، ليديروا بين فكيهم رطانة أعجمية غربية ، ليس بينها وبين دينهم وعروبتهم أي نسب !

وهؤلاء أجـانب أوربيون ، يسيحون في بـلاد غريبة في لغتهـا وعاداتها عنهم ، ثم لا ينظرون مع ذلك الى لغتهم الا نظرة اكبار تجعلهم لا يتعرفون الى غيرها حتى في ساعات حاجتهم واوقات غربتهم !

أما انني قد أرى في تكاتفنا ووحدتنا الجديدة بريقاً من التفاؤل والأمل ، ولكن هذا البريق لا يمكن أن يدنو فيلامس نفسي ما دام في شعوبنا عرب مستعجمون ، ومسلمون متفرنجون ، قد ران الاستعمار على قلوبهم ، فسلب منها الاكبار للغتهم ، والايمان بدينهم وقوميتهم •

ووالله ان أمثال هؤلاء فينا ليسوا بقلة ، بل انهم لكثيرون • واني لأذكر أني شاهدت كثيراً ممن يحاولون بكل ما لديهم من جهـد أن يدخلوا الى أذهان من حولهم أنهم غربيون في لباسهم وفي لغتهم وفي عاداتهم ، وأنهم انما يصانعون من حولهم هؤلاء الشرقيين مصانعـة ويجاملونهم مجاملة • وكم جالست أناساً لا يعرف أحدهم من حديث

المجامع والمجالس الا أن يقول ــ في تلمظ وتشدق ، وتغمٌ في العين، وتمطٌ في الفم ــ ان هذا الشرق متأخر .. غير راق .. وأنه يتمنى لو كان أوربياً يعيش في أوربا ، بل انه قد كان ينبغ كثيراً لو عاش في مجتمع أوربي ... وأنه مظلوم .. مظلوم بسبب ضياعه في هذا الشرق .. ! !

وأقسم لو كان لرأيي في مثل هذا الشأن قوة الحكم والنفاذ لما ترددت في القول بأن أمثال هؤلاء يجب أن يعاقبوا ولا عقاب كبار المجرمين ، بل يجب أن ينفوا ويعدموا من هذا الشرق كله ، فهم ــ كما يقولون ــ ببقائهم هنا مظلومون ، وان الشرق نفسه لمظلوم بذلك أكثر .

ان أمثال هؤلاء انما يعيشون في هذا الشرق ليتلهوا بنعمه ، ويستمرءوا خيراته ، ثم ليكونوا أشواكاً في طريقه وعثرة في تقدمه . وانهم والله قد أعياهم الخمول والكسل أن يعيشوا في وطنهم أفراداً صالحين يتجاوبون معه ، ويساهمون في خدمته ، فقعدوا يتمشدقون بكلمات أجنبية لم تبصم غيرها أدمغتهم ، وأخذوا يرددون في المجالس قصة اوربا وعادات اوربا ومناهج اوربا ، وأن الشرق في كل ذلك دون اوربا ، وانهم يأسفون كل الأسف لأنها لم تكن مثل اوربا ... يحسبون أن مثل هذا الهرج يعوض لهم عزاً ، أو يحدث لهم شأنا أو يضعهم في مصاف المثقفين والمفكرين .

ولعمري لو لم تكن الحماقة قد ركبت أدمغتهم ، لأدركوا أن هذا

الشرق ان كانت فيه نقطة سوداء فانما هي من ظلّهم ، ولعلموا أن الذي يغار على وطنه ويأسف لتأخره ــ ان كان فيه تأخر ــ لا يدبر ليبتعد عنه ، ويخلع عاداته ليتبرأ منه ، وانما يشمر عن ساعديه ليتفادى نقصه ، ويبذل كل جهده ليعمل على تقدّمه . ولو كان كل الذين يغارون على أوطانهم وبلادهم يلجأون الى مثل ما يفعل هؤلاء . . اذاً لما سجل التاريخ لواحد منهم أي خدمة أو انسانية ، ولما أشاد ببطولة أحدهم أو تضحيته واخلاصه .

ولعمري لو لم يكن هؤلاء مصابين أيضاً في وعيهم وكرامتهم لأدركوا أن اللغات الأجنبية لم توضع بين مناهجنا الثقافية لكي تكون مادة للفخر والتعاظم في المجالس والمجتمعات ، أو لتكون من مقومات ثقافتنا الحقيقية . وانما قررت لتكون باباً الى استجلاب ما ينقصنا من أسباب القوة والحضارة عن طريق الترجمة والاطلاع . . وليس في استجلاب فنون القوة وأساليب الحضارة بأي طريق كان ومن أي أمة كانت أي غضاضة أو عيب .

* * *

هؤلاء فريق . . وهنالك فريق آخر ، هم أغرب من هؤلاء . والحديث عنه يثير الضحك . . الضحك المؤسف المر . انهم كثيرون وكثيرات ممن يتصنعون ويتصنعن الثقافة والوعي . . ولكنهم لا يملكون من مقومات هذا الوعي العظيم سوى التقزز والقرف من كل قديم ، والاندفاع الاعمى نحو كل ما هو جديد .

ثم لا يملكون من الحقائق العلمية التي يدافعون بها عن جديدهم سوى أن يقولوا في استنكار مترفّع : أفتريدون أن تعودوا بنا الى القرون الوسطى ..؟

بهذا فقط سمعت أحدهم يبرر دعوته الى اختلاط الجنسين في المدارس . وبهذا أيضاً سمعت احداهن تبرهن على أحقية ما تدعو اليه من أفكار مستوردة . . فهل علم هؤلاء ما هي القرون الوسطى التي يقرفون من اسمها ؟ وهلاّ درسوا شيئاً من التاريخ ليعلموا هل كانت تلك العصور الوسطى متاهة ظلمة وانحطاط كما يتوهمون ، أم مثار معجزة تاريخية لعلّ دماغ القرن العشرين بين كثير من فتياتنا وفتياتنا لا يبلغ أن يدرك سرّها ، فضلاً عن أن يحقق لهذا العصر مثلها . .

ان العصور الوسطى ــ يا أرباب الوعي وا لثقافة الخارقة ــ هي التي صنعت تاريخكم العلمي والحضاري ، وهي التي سجلت لكم في سمع العالم دويّاً ، وهي التي أكسبتكم في صدور الأمم مكانة وفخراً .

من عقلية العصور الوسطى التي تقرفون منها خلق علم الاجتماع . وما كان كل من ڤيكو ، واوجيست كونت ، وكتلييه ، الا عالة متسولين من حولها . ومن بساطة تلك العصور التي تترفعون في خيلاء عنها انطلقت علوم الطب والكيمياء والفلك والنفس ومختلف الفنون الرياضية ، وما كان أولو الفكر الذين أناروا شعلة الفكر

بعدئذ في أوربا الا تلامذة معترفين لتلك العصور . وآباؤكم من رجال القرون الوسطى هم الذين مدوا في فتوحاتهم الجبارة يميناً الى الغرب أخضعت لهم بلاد الأندلس ، وشمالاً الى الشرق أوصلتهم الى بلاد الصين . وفي عزمة لم ينسها الدهر قذفوا الى البحر بالصليبيين وحملاتهم ، وبقي بيت المقدس طاهراً لم يدنسه قذى من أرجاسهم . واليهود الذين يستحلونه اليوم لا يبلغون معشار ما بلغوا . . .

هذه هي القرون الوسطى ، وتلك هي حضارتها ورقيها . .

والى شباب البروتوكول والسلاسل الذهبية التي تتلوّى على أصابعهم أو تتدلّى من معاصمهم ، والى فتيات الجابونيز ، ربات المرآة والتواليت ومتعشقات كل ما هو غربي أتوجه سائلاً :

ما الذي نفع الوطن من الترقيع الذي سعيتم مهرولين فيه وراء غيركم ، والذي سميتموه لنا مدنية وحضارة ، حتى تتمشدقوا به مباهاة وتثوراو من أجله غيرة ودفاعاً ؟ وما الذي ضر الوطن والتاريخ من العصور الوسطى وذويها حتى تنفضوا آذانكم من غبار الحديث عنها وعن تقاليدها ومميزاتها ؟

لعلكم سمعتم أهل أوربا يلعنون عصورهم الوسطى ، فقلدتموهم حتى في ذلك ؟ ولكن ويحكم انها في الوقت الذي كانت ظلاماً تخيم عليهم ، كانت اشراقاً معجزاً ينبعث من عندنا . فهل وصلت بكم المتابعة العمياء حتى الى هذا الحد ...!!

ان فرق ما بينكم وبين قرونكم الوسطى ، أن أهلها خلقوا للعالم معجزة ، وأسسوا للدنيا حضارة ، وخلدوا فيها تاريخاً وعلماً ، كل ذلك في تواضع ووقار وصمت . وخلقتم أنتم في مكان ذلك كلاماً . . . واستعضتم عن الاختراع تقليداً واتباعاً . . وتباهيتم بآثارهم في الوقت الذي تتبرؤون من تقاليدهم ولون حياتهم .

والكلام لا يبني مجداً جديداً ، والاستهواء التقليدي لا يعوض عزاً فائتاً ، والشباب الذي لا يهديه عقله الى اتباع خطى أجداده الفاتحين لا يعرف أن يطرد من بلاده عدواً . والفتاة التي تتخذ من الثقافة والفنون مسحوقاً جديداً من التواليت للسانها ليست هي التي تهز العالم بشمالها . والمشكلة ليست منغرسة في فصل الطالبات عن الطلاب أو في عدم تقرير حياة الاختلاط ، انما المشكلة في أننا لانعلم ولا نريد أن نعلم لماذا خلقنا ، وما هي وظيفتنا في الحياة ، وكيف يجب أن نضن على الوقت بضياعه في توافه الكلام ، والعادات والتقاليد والحفلات والجيئة والذهاب ، دون أي عمل جوهري يتصل بالوظيفة التي خلقنا لأدائها .

وان هذا الشرق لن يعثر على مجده الضائع الا اذا تطاول واستعلى ، وبلغ في نهج حياته وروحها وتقاليدها ذلك المستوى الرفيع الذي كان يسير عليه أجدادنا في القرون الوسطى . . القرون التي نعيش اليوم تحت منتّها وتفضّلها .

وما الحياد الايجابي الا تحقيق لهذا التطاول والشموخ . وما وحدتنا التي تمت الا ابتداء سير في هذا السبيل .

الغايات والوسائل في حياتنا العملية

.. يارجال الأمة : اضمنوا لي مجتمعاً
تنتظم فيه الوسائل والغايات ، أضمن لكم حياة
تستقر فيها السعادة والأمن

من أهم الأسباب التي تمنع حياتنا العملية أن تؤتي ثمارها وارفة كاملة ، والتي تجعلنا كأنما نسير في دائرة مفرغة ، تبدأ من حيث تنتهي ، وتنتهي من حيث تبدأ ـ اختلاط الوسائل والغايات علينا ، والتباسها وتداخلها ببعض .

فنحن في معظم اتجاهاتنا وشؤوننا ، قلما نحاول أن ندرك ونفرق بين ما هو غاية تستحق لذاتها التقديس ، وما هو وسيلة الى تلك الغاية ، تقدر ولكن لغيرها ، وتعظم ولكن ما دامت تحقق المراد منها .

وكيف تستطيع أمة أن تستثمر أعمالها ، وتفيد من جهودها اذا لم تكن بحيث تميز بين هاتين الطائفتين من شؤون الحياة ، لتقدر كلاً منها قدره وتوليه من التقديس ما يستحق ؟ .

وعندي أن الغايات الرئيسية التي يجب أن يكون لها منا التقديس التام الدائم لا تكاد تزيد عن ثلاث غايات : التدين الذي خلقنا من أجله ، والكيان القومي الذي ترتبط به حياتنا ، والثقافة التي هي ميزان قيمة الأمم . ولا يرد هنا ما يقوله بعض فلاسفة الاجتماع من أن النقطة الأخيرة المقدسة من مقاصد الأمة لا يمكن أن تتسع لغايتين ، اذ أن احداهما ستكون في الحقيقة وسيلة للأخرى ، وبذلك لا بد أن تعود الغاية واحدة فقط ، نقول ان هذا لا يرد هنا ، لأن كلاً من غاياتنا الثلاث متممة للأخرى ومرتبطة بها . فديننا الاسلامي لا يقبل أن يقوم الا على أساس ثقافي دقيق ،

وثقافتنا نفسها لا تتكامل الا اذا تشربت روح الدين ، وكياننا القومي حقيقة لا تقوم الا على تاريخنا الديني والثقافي . فنقطة الغاية المقدسة في حياتنا اذاً هي هذه الوحدة الكاملة المتضمنة لهذه العناصر الثلاثة .

ولكنا هل تتذكر هذه الحقيقة في حقل حياتنا العملية ، ونعمل طبقها . . ؟ وهل نقدر كلاً من هذه العناصر الثلاثة على أنها غاية بذاتها ، ونجلها على أنها مقصد برأسه ما وراءه من بغية ؟

ألواقع أننا ننسى هذا . . والواقع أننا اذ نتعلم انما نعتبر التعلم مرتقى الى غاية ووسيلة الى هدف . والطالب الذي يعكف على اقتناص الحقائق العلمية وكشفها ، لا تهمه تلك الحقائق بمقدار ما تهمه الشهادة التي ينتظرها بفارغ الصبر ، ليصل بها الى أيّ وظيفة يتمتع من ورائها بعيش رخي . . ولا على الحقائق العلمية بعد ذلك ان بقيت لديه أو محيت . .

وواضح أن من آثار الخلط في فهم هذه الناحية أن تغيض الصناعات العملية والمهارات اليدوية من المجتمع ، وأن يصبح عامة الناس عيالاً على رصيد الدولة ، يتقاسمونه لقاء لا شيء . . ثم تقدم بعد ذلك النتيجة الطبيعية ، وهي العجز في الدولة والفقر في الأمة والضعف في الانتاج .

أما الدين فلست بمبالغ ان قلت انه قد نزل في صدور معظم أربابه ودعاته في مكان الوسيلة لتحقيق أتفه الأغراض والأماني ،

لقد اكتشفوا أنه شيء مريح . . ونظيف . . ومحبب الى النـاس ومعظّم لهم في الأفئدة والأبصار . . ثم هو فوق ذلك كله تجـارة رابحة مائة في المائة ، وبمقـدار لباقة أحدهم ودهائه وتأثـيره على الاحباب ، ترتفع نسبة الارباح . . . وهكذا نزلوا بالدعوة الدينية عن مستقرها الأقدس السامي ، وراحوا يجرجرونها وسيلة للمطامع الارضية المادية الفانية . .

وكان أن فقدت الدعوة الدينية بذلك كيانها العظيم الموحـد ، وتصدعت الى قطع وأجزاء . . كل قطعة في يد واحد منهم ، يشدها وينفخها ليجعل منها ديناً برأسه يدعو اليه دون غيره . وكانت النتيجة الأدهى مـن ذلك أن تفرق دعاة الدين وتـدابروا وتطاعنوا! . . . وهـم أحرى الخليقة كلها بتقـدير المثل العليـا ، والاخلاص لهـا والاستماتة في سبيلها .

ولست أنسى أن بينهم من هـو كالنجم في الاضاءة والطهـارة والاخلاص . ولكن هذا هو الشأن الغالب على كثير منهم اليوم .

* * *

أما الوسائل . . أما الوسائل التي ننسى أنها أغراض تستخـدم لغيرها ، فنحورها بذلك عن مجاريها فكثيرة جداً . وانك لتستطيع أن تلمس في كل وجه من أوجه نشاطنا الاجتماعي وسيلة الى غايـة من الغايات التي ذكرناها ، لو أننا أردنا أن نستعمل ذلك على وجهه المناسب .

فالفن مثلاً وسيلة . . الفن بأنواعه من غناء وتمثيل وشاشة ، كل ذلك وسيلة وأيما وسيلة لغاياتنا المقدسة ، لو أنا استخدمناه استخداماً منظماً . كم من ألحان أمدت أمما بالشجاعة والبأس ، ونبهتها من حلم ، ونشطتها من خمول . وكم من مسرحيات فعلت في الألباب ما لا تفعله مواعظ ، وبعثت فيها من النهضة والوعي ما لا تبعثه الخطب الحماسية ، ولا الحقائق العلمية .

والسينما . . هل السينما الا دار لتربية النفوس ومعالجتها ، وورشة لبعث الصناعات واحياء الاختراعات ، وهل اقتبست أوربا جل رقيها الا عن طريق السينما ومدرستها ؟

ولكننا مع الأسف ، قد نسينا أو تناسينا أن كل ذلك وسيلة . فجعلنا من الطرب والغناء مادة للتداعي واشباع النهم الغريزي ، واتخذنا من دور السينما مثابة لحك الجرب الجنسي . ثم عدنا بعد ذلك دون أن نلمس نتيجة أو نرقى الى أي غاية .

والمال أيضاً وسيلة ، يعتمد عليها الفرد في أداء وظائفه ويستخدمها المجتمع في بناء نظمه وأسسه . وما أعظم فائدته وانتاجه حينما يستعمل على أنه كذلك ، وما أشد كوارثه حينما يقدس ويقصد لذاته .

أما نحن فنأبى أيضاً الا أن نقصده لذاته ، ونأبى الا أن نتخذه على انه من أسمى الغايات وأجلّها ، يجمع ليكنز ، ويدخر ليخلد ، ويربى ليتعاظم به . وكان من نتيجة ذلك أن تكاثفت وتزاحمت

الأمة من حوله ، ولم يكن للحصول عليه الا وسيلة المباراة والصراع .. فربح المعركة أناس ، وخسرها آخرون . أولئك يعيشون في ظلال من الترف ، ولا يجدون أمامهم ثغرة يبعثرون فيها ما معهم من مال ، وهؤلاء يعيشون في ظلام العدم ، ولا يجدون أمامهم قرشاً يحصلون به على لقمة من طعام .

ولو اتا شئنا أن نعترف بأن المال ان هو الا وسيلة . . ولو نا استخدمناه على أنه مجرد وسيلة . . لقام لنا على ذلك مجتمع رخي تفيء سعادته على جميع أهله وأفراده .

* * *

وبعد ، فيارجال الأمة : اضمنوا لي مجتمعاً تنتظم فيه الوسائل والغايات ، أضمن لكم حياة تستقر فيها السعادة والأمن .

قلب يحترق (١)

.. فقلت له : ولكن ما الذي منعهم من أن
يمكنوك من رؤية الفتاة قبل زواجك منها ؟
قال : التقاليد ياسيدي .. الشهامة الأبية..
منعهم عن ذلك أنهم بزعمهم محافظون ..

(١) كتبت هذه القصة في القاهرة بتاريخ ١٢ / ١٩٥٥

زارني بعد غيبة طويلة ، ظننته في خلالها قد غادر القاهرة الى بلده . ولمّا عرفته وتبيّنته أهلّت به ورحبت ، وقمت أهيّىء له كأساً من الشاي . وكانت ليلة مطيرة باردة ، والشتاء في القاهرة وان كان أخف وطأة منه في سوريا الا أنه كثيراً ما يدفع بموجات من البرد القارس ، لا تعلم من أين جاءت أو كيف ظهرت .

ثم جلست اليه ، أكلمه ، وأسأله عن شأنه وحاله . فراعني أن رأيته ينظر الى ما حوله بعين شاردة ، ويكلمني بما لا يعي . وشعرت أن تفكيره لا يكاد يرسو عند أمر . ورأيته يقفز من حديث الى آخر ، ومن موضوع لغيره . فأدركت من مظهره ، ورائحة حديثه ، أن الرجل قد ألمّت به نكبة مّا . . جعلته من تأثيرها كالنائم المغشي عليه ، وضربت بين لسانه وعقله بحجاب ، فهو يهذي بما لا يعلم !

وبعد لأي ، استعطت أن أوقظه من غمرة سباته ليملك من الوعي ما يقص به عليّ كارثته القاتلة . .

قال لي : كنت الى منذ أيام أعيش خالي القلب ، مستريح البال . وكأنما كنت متوجساً أن لا تبقى لي تلك الراحة ، ولا يدوم لي ذلك الهدوء . فكنت أسأل الله تعالى اللطف والستر . وكنت أحوط قلبي دائماً ، وألفّه بالحجب والتعاويذ ، خيفة أن تمتد اليه من هذا

المجتمع شرارة تحرقه أو يـد" تسرقه . . الى أن جـاء قضاء الله ، ووقعت فيما كنت أخشاه ، والى أن رأيتها . . .

لقد رأيتها يا أخي ، وياليتني لم أعرف الطريق الذي زجني اليها ، رأيتها صاعداً في العمارة التي أسكن فيها وهي نازلة . . وفجـأة التقت عيناهـا بعينيّ ، واشتبكت النظرتان ، وجمدتـا على ذلك لحظات . .

أما أنا فماذا رأيت ؟ . . لا أقول لك جمـال ، ولا سحر ، ولا شيئاً من هـذه العبارات . فكلها قد تكون كاذبة اذا صدرت مـن انسان محب . . . ولكن الذي أتأكد من أني صادق فيه ، هو أني لم أكد أنظر اليها حتى خيّل الي أنني أمام انسانة أعرفها منذ أزمان وأحقاب ، وأن هذا الهيكل القائم حيالي انما هو بقية من قلبي ، طالما أرّقني وأزعجني للبحث عنه . ورأيته يقفز ويصّاعد في صـدري ، كأنما يبحث عن سبيل لينقض منه الى جزئه الذي عاد اليه ، وبقيتـه التي طالما حنّ اليها .

وأما هي ، فقد رأيت نظرتها الشاردة في عيني كأنما تقول :

ألا تذكر ؟ . . ألا تـذكر أنك تعرفني ؟ ألا تذكر اذ كنا قلبـاً واحداً وجسداً واحداً ، فتقسّم الجسد وتمزع القلب . والآن . . أفلا تغتبط أن التقى الجسمان واتحد القلبان ؟

ثم مضت ــ يا صاحبي ــ ومضيت ، دون أن أكلمها أو تكلمني . . مضيت متحامـلاً على نفسي ، أستقبل هذه النكبـة التي لا أدري

ما الذي سيختمها به القضاء . مضيت وياليتها كانت اللقيا الأولى والأخيرة ، ولكن الحب نبّه كلاً منا الى صاحبه ، وأصبح بعد ذلك سلّم العمارة التي يسكنها كلانا كموعد لقاء . . . لقاء لا تتحدث فيه سوى الأفئدة والعيون . . .

فقلت له : ولكنك يا أخي متزوج ، فكيف رأت تلك الفتاة فراغاً في قلبك حتى استحلّته ؟ !

فاستضحك بفتور ، ثم قال :

وهل نفخ هذه النار في ضلوعي الا أنني متزوج ؟ . . . انني لدى الناس الذين يبصرون ولا يعرفون ، متزوج . ولكني في الحقيقة عازب . . عازب اتخذ من الزواج قيداً يحبسه على عزوبته ورهبانية حياته كلها !

قلت وكيف ذلك ؟

قال : خطبت لي أسرتي فتاة لم أكن قط شاهدتها ولا عرفتها . وأصدروا أوامرهم اليّ أن أقبل ذلك على ظلام الجهل بها وبشكلها ، دون أي تردد أو دلال . ذلك أنهم قد عرفوا الفتاة وأحبوها واقتنعوا بها .. واذا أحبها قلب الأب والأم ، فقلب صاحب العلاقة لا عبرة به . ولينقلب الحال بين الفتاة وزوجها بعد ذلك الى جحيم ان شاء ، فكل ذلك شيء عارض ما دامت رغبة الأسرة هي التي تحققت ! ولذا فانه لم يكن عليهم سوى أن يتخيروا ويأمروا . . وليس لي الا السمع والطاعة . . فسمعت وأطعت .

سمعت وأطعت ، لأجد نفسي أمام فتاة ليس بينها وبين قلبي أي صلة لا في شكلها ولا في طبعها ولا في سنها . . ورأيتني واياها قد أصبحنا ضحية للأسرة الحاكمة . . أمّا أنا فهيهات الخلاص وقد وقعت . . وأما هي فقد رأيت أن أمر اسعادها في يدي . فقلت في نفسي : اذا فاتني أن أشعر السعادة نفسي ، فيجب أن لا يفوتني أن أشعرها غيري . ومن رحمة الله بعباده المنكوبين ، أنه يشعرهم بمثل ما فاتهم من سعادة في احسانهم الى من يعيشون معهم في النكبات . ومن ذلك الحين وأنا أطلعها مني على قلب مستعار وشعور غير حقيقي . .

أما اليوم . . أما اليوم ، وقد وقع ما كنت أخشاه فكيف أصنع ؟ وكيف أعيش ؟ . . . كيف أسعد نفسي ، وأبقي على سعادة تلك ؟

لقد وقعت والله يا صاحبي تحت كارثة ذات ثلاث شعب : حب يحرق القلب ، ويأس يقتل النفس ، وشفقة تمزق الكبد !

فقلت له : ولكن ما الذي منعهم من أن يمكنوك من رؤية الفتاة قبل زواجك منها ؟

قال : التقاليد ياسيدي . . الشهامة الأبية . . منعهم عن ذلك أنهم بزعمهم محافظون . . ثم هب أنني رأيتها ، ولكنني لن استطيع الخروج أيضاً عن حكم الأسرة الحاكمة وقرارها .

ثم قام تاركاً كأس الشاي كما هو ، وأدبر ، دون أن أستطيع مواساته ولا بكلمة .

* * *

قلت لنفسي بعد أن حدث حديثه ومضى : انا لله ، ان هذا وكثيراً من أمثال هذا يذهبون ضحية مجتمعهم لأمرين : الجهل بروح الاسلام والبعد عن أحكامه ، والشغف بكل ما ينبع به الغرب من مفاسد .

فلو أننا أدركنا أن الاسلام يعتبر رضى كل من الزوجين ويأمر برؤية الفتاة عند خطبتها رؤية كافية وخضعنا لذلك .. ولو أننا نظفنا مجتمعنا مما عصفه علينا الغرب من هذا التبرج والاختلاط ـ اذاً لما شقي هذا الفتى في بناء أسرته ولما فقد قلبه في لحظة واحدة ، وهو أحوج ما يكون اليه .

من المسؤول عن هذه الضحية ؟

.. ولكني ما علمت الا اخيراً ان اسم الثقافة والفن على هذه الكتب ما هو الا لفافة سوداء تشد بها اعين قارئيها ، لتوصلهم من حيث لا يشعرون الى اسفل الهاوية حيث الخمر والليل والشقاء .

التقيت به في الفندق .. ورأيته منكباً على مصحف بين يديه ، يردّد في خشوع وتأثر بعض آياته . ولم يخطر في بالي أن أفهم الآيات التي يرددها ، أو أن أقف على سر خشوعه منها ، فقد استرعاني شيء أغرب من ذلك ، لقد عرفت هذا الفتى كما يتحدث عنه من يعلمون تفاصيل حياته ، شاباً ماجناً مقامراً ، يعاقر الخمرة ، لا يفلتها ولا تفلته . فمن اين هبّت في نفسه الجامدة هذه النسمة من الروحانية والتقوى في هذه الساعة ؟ !

وشجعني هذا الاستغراب ، مع ظلال روحانيته المنتشرة حوله اذ ذاك أن أتقدم اليه مسلماً ومصافحاً ، وأن أسأله أخيراً عن السبب الذي أثار في نفسه هذا الخشوع رغم كل ما يُسمع عنه من الخروج على دائرة الشرع في كثير من أحكامه الخلقية ، بين جميع أهل حيّه وجيرانه !

فنظر اليّ نظرة صامتة ، كأنما أثار سؤالي في نفسه ألماً حزّ في مشاعره ، ولم يخف عليّ أن هذا الالم انما هو التحسر من شيوع التواء سلوكه بين جميع أهل حيه كما أقول .

ثم أمال كرسيه نحوي ، ورفع اليّ حاجبيه قائلاً :

دعاني الى الخشوع والتأثر ، أنني تذكرت برؤية هذا المصحف حياتي الماضية ، حياتي المستقيمة التي طويتها وأدبرت عنها ... سعادتي

التي لا أدري كيف عفتها وفارقتها .. دعاني الى هـذا الذي تسميه خشوعاً أنني أنظر الى حياة الاستقامة والتدين التي عشت في ظلالهـا خمساً وعشرين سنة ، كما ينظر الموتى من وراء قبورهم الى الحيـاة التي فارقوها . يحرق فؤادي ذكراها والحنين اليها ، وتمنعني نفسي التي أفلتَ بيدي زمامها من العودة اليها .

ثم سكت الفتى ، وراح يحملق في الأرض ضاماً شفتيه بشدة ، كأنما يدافع غيظاً قد تجمع في نفسه . ولكنه سرعان ما عاد فرفع رأسه اليَّ وحدَّق في وجهي قائلاً :

ولكن أتريد أن تعلم ما هي اليد الحقيقية التي أفلتت مني زمـام نفسي ، ودفعت بي الى الهاوية ؟

وهبَّ من الكرسي الذي كان جالساً عليه الى معطفه المعلق على مقربة منه ، فانتزع من جيبه رزمـة من المجلات والقصص المختلفـة والقاها بين يديَّ قائلاً :

هذه .. هذه هي اليد التي خربت بيتي ، وألقت بي في يم متلاطم من حيـاة الفجور والشقاء ، لا ماؤه المالح يرويني ، ولا كبدي تبرد حرقتـه وتسكن لهفتـه ، ولا اوصالي تسعفني بالعودة الى شاطيء السعادة والأمان . هذه المجلات ، دفنت سعادتي وهي في المهد ... قوضت بناء بيتي الذي طالما فكرت فيه ، واسرتي التي طالما كنت أحلم بها وأقيم في ذهني نموذجاً سعيداً لها . فرقت بيني وبين فتاتي الطاهرة التي رضيت بها لطهارتها ، وقنعت بي لطهارتي . فلما أزلقتني هـذه

المجلات في الهاوية تنكرت ، وتنكر لي أهلها ، بل وتنكرت أنا أيضاً لهم ، ولم أعد أستطيع أن أبصر المرأة او الفتاة الا من وراء زجاجة الخمر وبين أضواء الليل واوكاره .

ثم قام الرجل من مكانه يتململ .. وراح يذرع أرض غرفته جيئة وذهاباً ، وأخذ يحدثني عن كيفية افساد هذه المجلات له وتغيير سلوكه قائلاً :

أتدري ما هو أول شيء دفعني الى قراءة هذه المجلات ؟ لقد كان اول ما حملني على ذلك هو الثقافة والفن ... ! فقد كنت أوثر أن أنفق فضل وقتي كل يوم في قراءة مواضيع خفيفة سهلة توسع فكري وعقليتي ، كما انني كنت أتعشق قراءة القصة ويستهويني فنها .

ولكني ما علمت الا أخيراً أن اسم الثقافة والفن على هذه الكتب ما هو الا لفافة سوداء تشد بها أعين قارئيها ، لتوصلهم من حيث لا يشعرون الى أسفل الهاوية ، حيث الخمر والليل والشقاء .

قال : وأخذت تستقر في تفكيري شيئاً فشيئاً صور تلك العاريات التي تطالعني مجلاتي (الثقافية) عليها ، وراحت احلامي تصوّر لي لو رأيتهن وعاشرتهن ... وجاءت القصص هي الاخرى بفنها ، تتمم لأحلامي طريقة هذه المغامرة والمعاشرة . والى ان انتبهت الى خطورة هذه التصورات والاحلام في حياتي كان الوقت قد فات ، وكنت قد علقت بهذه الصور وتلك القصص ، كما يعلق المبتلى المسكين بأفيونه !

وباشرت بأولى المحاولات لتحقيق شيء من أحلامي والوصول الى

حقيقة بعض ما أقرأه واتخيله . وكانت المحاولة الأولى فاشلة ، فقد كنت أعمد الى المشي في الشوارع الحديثة المزدحمة ، متنقلاً بين رأسها ونهايتها ، أبحث عن واحدة أعاكسها أو تعاكسني ، كما يفعل أهل هذه الصنعة ويتحدثون عن ذلك بأقلامهم . ولكن فاتني أنني حيٌّي، لا أكاد أستقبل الفتاة التي استجمع نفسي للحديث معها حتى يجفّ دمي وتخور أعصابي ويبس لساني . فعلمت أخيراً أن هذه المرحلة شاقة عليّ ، وانما هي صالحة للقدامى فقط في هذا الفن .

هنالك عقدت عزمي على سلوك المرحلة الأخرى .. ورحت أنتظر الليل حتى اذا أقبل وأرخى سدوله ، خرجت أؤم اقرب ملهى راقص في المدينة . وكانت مغامرة شديدة بين نفسي وأعصابي ، لا أزال أتصورها الى الآن . اعصابي تخور .. وقلبي يدق في صدري دقات عنيفة .. وريقي ينشب في حلقي . ولكن نفسي ثائرة تريد أن ترى .. تريد أن تذوق ما تقرأه وتسمع به .

وهكذا تغلبت نفسي عليّ ، ودخلت في تلك الليلة لأول مرة في حياتي الى وكر من أوكار الرقص والدعارة ، واندفعت الى داخله وانفاسي تتلاحق . وما ان صرت في وسطه ، وأبصرت الناس الذين من حولي هنا وهناك ، وانتبهت الى الجوّ الأغبر القاتم المتضرب بالدخان من فوق الرؤوس ، حتى أخذتني قشعريرة كأنها البرداء . وراحت تسري في مشاعري من الفرق الى القدم . وتخيلت كأنما الجدران الاربعة من حولي عيون بارقة تزجرني وتلعنني . أما الضحكات التي

كانت ترتفع من شتى جوانب الصالة ، فلم أكن أحسبها الا ضحكات على مظهري المريب وجسمي المرتعد . واخترت أظلم ركن هناك فقبعت فيه منتظراً ما سيكون .

وهنا عاد الرجل فجلس على كرسيه ، ثم تنهّد قائلاً :

في تلك الساعة ياصاحبي .. وفي ذلك الركن المظلم من ذلك الملهى ، دفنت حياة ملؤها التدين والطهر والاستقامة ، واستقبلت شطر حياة قاتمة سوداء ، مملوءة بالشقاء والتعاسة والانحراف .

في تلك الساعة جاءت تدنو اليّ واحدة منهنّ في خطى مغرية وفي لباس اشد اغراء ، ثم جلست الى جانبي ... وأخذت تكلمني ... ولكن القشعريرة والبرداء لم تدعا لي لساناً ينطق او يتحرك . فأدركت أنني صيد جديد ، والتوت في حديثها الى ابحاث بعيدة عن الجو الذي أنا فيه ، الى أن نسيت نفسي ، وذهلت بالحديث معها ، هنالك عادت وأظهرت رغبتها في زجاجة من الخمر .. ! فاستحييت أن لا ألبي طلبها في ذلك ، كيف وقد نشأت على الكرم في بيتي ، وعلى أن لا أردّ سائلا مهما كان الأمر .

فلما جاء الخمر ، كان الأمر الذي لا مفرّ منه هو أن أشاركها في الشراب . ولم أكن قد ذقت الخمر قبل ذلك ولا عرفتها ، ولكن الوصول الى الغاية يحتاج الى سلوك الطريق . وما كان الخمر الا أول خطوة في طريق الفاحشة والاجرام . يشربها المرء اذ ذاك كرهاً ، ويتجرعها كما يتجرع المريض الدّواء ، ثم يهرع اليها بعد ذلك تمويهاً

لآثار الشقاء في النفس ، وتغطية لآلام الندم والتحسر على مـا وقع وفات . فلا تحسبنّ انّ أحداً في الناس يشربها للذة في مذاقها أو رغبة فيها بخصوصها . فما هي والله الا أقذر شراب يبتلى به الشقي فوق بلائه .

وهكذا سلكت الطريق الى ان وصلت الى الغاية .. الغاية التي رسمتها في فكري هذه السموم من ماركة القصص والمجلات العارية .

ثم قام الى رزمة كتبه ومجلاته التي كان قد ألقـاها مبعثرة في الأرض ، فأخذ منها واحدة يثريني غلافها .. وهي صورة لامرأة عارية على حالة لو نطقت لما تكلمت الا بهذه الجملة : (أنظر .. ألا تفضل هذه الطريقة على سواها ؟) ثم قلب منها بعض صفحات ، ودنا اليّ يريني صورة فتاة عارية تحاول اتمام عريها بحلّ القطعة الصغيرة التي تستر أسوأ ما في الجسم ، بينما تنظر عينـاها الى المتأمل فيهـا نظرة ينطلق منها تعبير كامل لقصة فاحشة بأكملها !

ثم رفع المجلة بيمينه الى الاعلى ، والقـاها على الأرض في حنق غريب ، وسكت قليلاً كأنه لا يدري ماذا يقول وماذا يصنع ، ثم رفع يديه الى الاعلى ينطق بهذه الكلمات التي بكى وهو يقولها :

(الله يخرب بيتكم مثل ما خربتو بيتي ، وحرمتوني من سعـادة أهلي وأولادي ، ودوبتوا حياتي ومالي ..) (١)

* * *

(١) هذه الكلمات هي نص ما قاله الشاب عندما تفاقم تأثره وغيظه .

وبعد فهذه قصة شاب من مئات الشبان الذين يقعون فريسة لهذه المجلات والقصص الماجنة .. وهي قصة لم نخترعها من الخيال ، ولم ننقلها من غير هذا العالم العربي الذي نعيش اليوم في دوّامة مشاكله .

فمن اجل أي غاية يا ترى ، نبرر التضحية بهذا الشاب ومئات من أمثاله ؟ وفي سبيل أي مصلحة يجوز أن نسكت على هـذا الأفيون المتغلغل في عقول هذه الناشئة ؟

اما أنت أيها الاخ الضحية المسكين ، فليس لي الا أن أدعو الله لك ولأمثالك قائلاً :

اللهم كما وفقت قادة هذه الأمة لحراستها واعادة وحدتها وكرامتها ، فوفق اللهم هؤلاء القادة لحراسة أخلاق هذه البلاد أيضاً وحفظهـا من كل ما يهددها في أخلاقها ودينها .

مأساة السلوك الخلقي في مجتمعنا

.. والتربيـة الخلقية ليست دراسـة في كتاب .. ولا هي بالقواعد العلمية للـدين .. ولا هي بتلك النظريات الفلسفية الفارغـة التي تسمى (الاخلاق) .. انها شيء فوق كل ذلك ، واقدس من كل ذلك. وهي مع هذا ، المادة الوحيدة التي لا تتعرف مدارسنا على شيء منها .

من أهم مآسينا الاجتماعية اليوم ، مأساة التربية الخلقية لـدى ناشئة البلاد . انها المأساة الوحيدة التي لم تستطع المعالجة ان توقفها عند حدٍّ ، بل وما قـدرت المعالجة سوى أن تنفخ في ضرامهـا ، ثم تصبح هي الأخرى مأساة ثانية الى جانبها .

ولعل معالجتها ــ من اجل ذلك ــ لا تزال الى اليوم أهم مشكلة تستدعي الحلّ السليم الدقيق . ولعل من الخير أيضاً أن نصارح بأننا لا نزال مع الاسف نعالج هذه المأساة معالجة بدائية غير ذات جدوى . اذ أن امرها موكول في معظم الحالات الى شعبة الأمن والآداب في البلاد ، ومـا كانت لدى شعبة الأمن يوماً ما أي سلطة لمعالجـة أي انحراف سوى سلطة الجزاء ، والتلويح بعصا الارهاب . وما كـان الزجر والارهاب في يوم ما سبيلاً الى تربية أية أمة ، وما عهد العلم والتاريخ أنهما أثمرا في يوم ما أي سلوك داخلي مستقيم .

اذمن الواجب أن نعلم بأن معالجة الخُلق والسلوك لها ميدان غير هذا ..

ان ميدانها الاول هناك .. على ثغر الطريق .. حيث يبزغ النشء ويترعرع ، ثم يدرج مقبلاً نحو نهر هذا المجتمع وصخبه . أما مجالها الثاني فهو المحافظة على نظافة المجتمع ومكافحة الأوباء الخلقية التي قد تظهر في بعض جهاته وجوانبه .

وثغر الطريق الى هذا المجتمع انما هو المدرسة . فهل يتلقى النشء في المدرسة شمّة من رائحة التربية الخلقية ؟

والتربية الخلقية ليست دراسة في كتاب .. ولا هي بالقواعد العلمية للدين .. ولا هي بتلك النظريات الفلسفية الفارغة التي تسمى (الاخلاق) ... ولا هي بالكلمات التقليدية التي تلقى لأدمغة تتلقّى .. انها شيء فوق كل ذلك ، وأقدس من كل ذلك . وهي مع هذا ، المادة الوحيدة التي لا تتعرف مدارسنا على شيء منها .

انها شيء يؤخذ به التلاميذ أخذاً ، وتشرّب به طباعهم عن طريق المران التطبيقي على النماذج الخلقية السامية ، وعن طريق صبغ مواد الدراسة عامة بالصبغة الخلقية والدينية . كما يحصّل على قسط كبير منها عن طريق (القدوة الحسنة) بأن يكون التلاميذ دائماً امام نماذج سامية من الاساتذة والمعلمين خلقاً وديناً . اذ أن طبيعة التقليد في الصغير — حتى سن المراهقة — تعتبر من أهم العوامل غيرالمقصودة التي تنغرس بتأثيرها معظم العناصر الخلقية في نفسه .

ولـصلاة" واحدة يحمل على ادائها الطلاب — سواء في المرحلة الابتدائية او الاعدادية او الثانوية — عن طريق طبيعي كالقدوة الحسنة التي ذكرناها ، أبلغ فائدة من عدة دروس في الاخلاق والدين ، يقذف فيها اليهم المدرس بالحقائق العلمية الغزيرة . فكيف اذا رسم ذلك طريقة لهم ، وعهد اليهم أنفسهم بتعهّد المصلّى مثلا وتنظيفه وبالامامة والأذان والخطابة في معظم الاحيان ، وعهد اليهم بين الفينة

والاخرى باقامة تمثيليات تتراآى في أبطالها نماذج خلقية عالية ، في ثوب زاه محبب الى نفوسهم ، وعهد اليهم باخراجها وتمثيلهـا تحت اشراف المدرس التربوي الخاص ؟

ان هذا ما من ريب لو طبق تطبيقاً منظماً تحت اشراف مـدرس خاص بهذه المادة ـ كمدرب التربية البدنية مثلاً ـ لما وقعنا في كل هذا المروج والاضطراب حيال هذا التيار الخلقي الملتوي . ولعمري ان ههنا فقط مركز الثغرة الحساسـة الاولى التي ان أهملت تسرب منها الى المجتمع وباء خلقي ما مثلـه وباء ، وان أغلقت وعـولجت هانت من بعدها معالجة كل شيء ، وعاش المجتمع مع مقوماته المادية والمعنوية في أمان من كل ما يهددهما .

ولقد بلـغ ذلك القسيس الانكليزي (دنلوب) منتهى الخبث حينما لعب لعبته في الاقليم الجنوبي من جمهوريتنا العربية المتحدة أيام الاحتلال الانكليزي لها ، وذلك بوصفه مستشاراً للمعارف اذ ذاك . حيث عمد الى جهاز التربية فيهـا ، فكشط عنه الصبغة التطبيقيـة للتربية الخلقية والدينيـة ، ثم ألبسه لباس التعليم الجاف ، وبالـغ ما استطاع في حشو عقول الناشئة بالحقائق الجافة التي تبلد العقل وتغلظ الحس . ولم يـدع في المنهج الدراسي متنفساً يشم منـه الصغار المعنى الروحي الواقعي لمفهوم الاخلاق العامة الـذي يسود مجتمعهم ويقوّم حياتهم ـ عمـل ذلك لكي لا ينتج ذلك الجهـاز سوى امّعاتٍ من الرجـال ذوي نفوس متداعية ، لا يصلحـون الا

مستخـدمين في وظائف أو كتّاباً في دواوين ، يأكلـون ويشربون وينامون .

ومن المؤسف جداً أن نقول ان حالتنا الراهنة اليوم قائمة تماماً على النهج الذي كان يتمناه دنلوب ، رغم أن الاحتـلال الانكليزي والفرنسي قد ولّى .

ومن المؤسف أيضاً أن نقول بأننا لم نكن خيراً بكثير من دنلوب وفرنسا في رعاية شؤوننا التربوية والدينية . مما جعلنا نقذف الى المجتمـع بشباب لم ينضج فيهم الوعي الخلقي الكامل الذي يربطهم بتاريخهم العربي والاسلامي ، ثم نحاول بعد ذلك معالجة الوضع ، ولكن أنّى للعلاج حينئذ أن يفيد ، وأنى للمنطق والتهديد أن يجدا وسيلة الى تقويم ما استصلب ملتوياً معوجاً ؟

ولقد جمعتني الصدف بواحد من هؤلاء الذين نشأوا وتخرجوا من شوامخ هذه المدارس ، ولكنها لم تقدر أن تملكهم أخـيراً أي سلاح من الحصانة الخلقية والدين . وراح يشكو الي بصراحة تامة آلامه النفسية التي لا يجد مفراً منها . فاسمعوا ما قال :

قال لي : انني أحب الفضيلة ، وأهتز طرباً للمثل العليا والمتمسكين بها . وما أكثر ما أقعد لأتخيـل نفسي بطلاً من أبطال الفضائـل ، وحـامياً من حماة الاخلاق . وكم أنسج في غمرة هـذه الاخيلـة أحلاماً مختلفـة أروي بها ظمأ قلبي لهـذه المثل والفضائل ، ولكني ـ ويا للاسف ـ لا استطيع أن أحقق شيئاً من هذه الاحلام . فقـد

ربيّت دون ان يبصرني أحد بالطريق المؤدي الى الفضيلة ويدرّبني عليها ويوضح أمامي معالمها . أما هؤلاء المعلمون ، فقد كانوا يضعون أمامي عن الدين والفضيلة ألفاظاً مغمضة صمّاء ... لا أجد في ناحية منها أي نافذة تهديني الى تحليلها او معناها . فكنت اتلقى هذه الألفاظ كما تتلقى صندوقاً أقفل على ما شئت من لآلىء وجواهر ، دون أن تتسلم له مفتاحاً او تهتدي لفتحه الى دليل . فان استطاع هذا الصندوق أن يرشح لك ظاهره بالذهب الذي في جوفه ، استطاعت تلك الألفاظ أيضاً أن تمسكني بالفضيلة التي أبحث عنها . وهكذا اعيش اليوم ... ! أتعشق الفضيلة ولا اهتدي الى صميمها ، وأبغض الرذيلة ولا أقوى على الخلاص منها . ذلك لأنني أقرأ عن الرذيلة كل يوم ماءة درس تطبيقي عملي في الأزقة والشوارع ، فلماذا لا اندفع اليها وأنطبع بها ؟ ولا أعثر على واحد من هذه الدروس في المعاهد والمدارس فضلاً عن الأزقة والشوارع ، فأين اعثر عليها وكيف أهتدي اليها ؟

ماذا تتوقع من أساليب المعالجة التربوية المفيدة لمثل هذا المسكين بعد أن اجتاز الطريق وتوسّط امواج هذا المجتمع وعبابه ؟ أمّا أنا فقد رأيتني أثقل عليه من شروره التي يتأفف منها ان انا قعدت أدندن حول رأسه عن طريق قال الله ... وقال رسول الله ... بعد أن تطبعت نفسه على ما شاء أن يطبعها عليه هذا المجتمع دون أن يكون له اذ ذاك من واق او حافظ .

ان هذا انسان زجّته المقادير في بحر خضم وبين امواج متلاطمة ، دون أن يجد قبل ذلك من يعلّمه السباحة ويدرّبه عليها . فماذا يغنيه وهو يغوص بين أمواج الموت أن تصيح به قائلاً : خبط برجلك شق بيديك الماء ... أنفخ بفمك ... ؟ لا ريب أنه سيختنق بكلامك هذا قبل أن يخنقه زبد البحر وامواجه .

* * *

أما عثرات هذا المجتمع .. أما الصخور الراسية القائمة في جنباته التي من شأنها أن تصدع هذه الروح التربوية حتى بعد تعهدها وممارستها في المدارس ، فلا تنكر خطورة ذلك وأثره في زلزلة الكيان الخلقي لدى الشباب . ولكنا نعتبر معالجتها تأتي في الخطوة الثانية بعد الاولى (١) . ولا شك ان تلك العثرات — بعد ذلك — أمر لا يجوز الغضّ عنه او التساهل فيه ، ولا بدّ من العمل على توافق روحي المدرسة والمجتمع والتفاعل بينهما . اذ الطفل ابن لمجتمعه قبل ان يكون ابناً لأسرته او مدرسته ، ومعنى ذلك أنه

---

(١) اطلعت اثناء كتابة هذا الفصل على مقال في عدد جديد بمجلة المصور يعالج فيه محررها هذه المشكلة ثم يرى ان الحل الجزري لها احد شيئين ، ويقول عن الشيء الاول بانه التعليم المختلط بين الجنسين في كافة مراحل التعليم . ثم يعترف بنفسه ان الثمرة المرجوة لذلك لا تأتي الا بعد سنوات طويلة ... ونحن نكرر مرة اخرى ونقول : ان هذا الحل للمشكلة من مقترحات امة اجنبية عنا في بادىء الامر . والحل نفسه مشكلة اكبر من امها ، لان المبادىء التي تجعلنا لا نرضى ببقاء المشكلة كما هي ، هي نفسها المبادىء التي لا ترضى لها ابدا بهذا الحل .

لا بـدّ أن تنطبع في نفسه تقاليد ذلك المجتمع وعاداتـه رغم أنف المدرسة والاسرة ورغم أنف مجهودهمـا . بل ومـا من شك في أن المجتمع ينقض كل مـا نسجته الأسرة والمدرسـة ، ويجعله أنكاثاً ، اذا لم يتطابق معهما في روحـه وتقاليده . بل واذا نزلنـا عند رأي العالم الفرنسي (أميل دوركايم) وأعضاء مدرسته ، نجد أن البيئة الاجتماعية هي العامل الوحيد في تربية الطفل ، وأنّ ما ابرمته هذه البيئة حيال ذلك ، لا يمكن لأي عامل من العوامل التربوية الاخرى نقضه أو تغييره .

ولذلك ، فقـد كان أمراً مفروغاً منه وجوب كنسِ كل مـا في جوانب هذا المجتمع من أقذار وأوباء خلقية ، ان أريد للروح التربوية أن تسير في نفوس النشء سليمة هادئة الى آخر الطريق .

وماذا نرى في مجتمعنا اليوم ؟

انـا نرى فيه حمماً من الاوبئة والأقذار والمفاسد . بعضهـا يتجسّد ويسير تحت راية (الحرية) ، وبعضهـا الآخر يشق طريقه من وراء امتيـاز (الفنون والآداب) ، والبعض منهـا يخبئ باسم التقدمية والتمدن . والجميع ينقلب في نهاية الطريق الى وقود يزيد من أوار هذه المأساة ولهيبها ، وتبحث هنالك عن رسالة تلك الفنون والآداب والتقدمية أين بقيت وماذا فعلت ، ولكنك لا تبصر الا ناراً تتضرم ...

ففي ميدان الأدب ، تجد معظم ادعيائـه لا يحلو لهم سوى ان

يجعلوا منه غلالة مزينة رقيقة يلبسونها لقضايا (الجنس) ثم يعرضونها أمـام الأبصار ، كأن شؤون الجنس قد منيت بيننا بزهـد فيهـا وادبار عنها ، فهي تحتاج الى الاطراء لها والدعاية اليها ...

ومن تحت لائحة (الحرية) تبصر خليطـاً متلاطمـاً من مئات الاشكال والأزياء التي فجرتها أخيلة الرذيلة واظهرتها النزوات الملتهبة. هـذه فتاة هجمت الى الشارع وقـد كشفت للناس من منكبيهـا الى اقصى فقار ظهرهـا . وتلك قد اخترعت أمكر صورة من العُرْي الفني ... حيث كشفت للناس عن معظم جسمهـا ، ولفّت سـائره بمزق رقيقة عصرت نفسها فيـه عصراً ، ثم راحت تتنقرز في مشيـة متعثرة بين الغادين والرائحين . وهـذه واحدة أخرى قـد غمست شعرها ووجهها وفمها وعيونهـا وأهدابهـا بشتى الأصباغ المتضاربة المختلفة التي لا يفوح منهـا الا رائحة النهم الجنسي الصارخ .

ومن وراء صيحات (التقدم والمدنية) تبصر مظاهر شاذة غريبة ، لمفهوم الروح الاجتماعية في بلادنا ــ كبلاد عربية مسلمة لها مبادئها الراسخة الخالدة ــ فهي مفاهيم لا تجد نظيرها الا بين الأمم الأجنبية عنا ، هـذه الأمم التي نعتبر أنفسنا في حياد ايجابي عنها .

وبعـد هذا كله فالغريب أننا نثور ضد النتائج الطبيعية لهـذه المظاهر الاجتماعية الشاذة عنـا ، ونعترف ونقرّ اننا في مأساة يجب أن تتـداركها ونقضي عليهـا .. !!

ان القضاء على النتائج يتطلب قضاء على المقدمات ... ولـذا

فلا بـد من القضاء أولاً على المفـاهيم البشعة المعكوسـة للآداب والفنون بيننا ، ولا بـد من الضرب الشديد على أيدي الذين يحلو لهم هـذا الافتراء على الأدب والفن . أمـا المرتزقة الذين يبحثون بذلك عن الطعـام و (العيش) كما يقولون ، فعليهم ان يفتشوا عن سبيل غير هـذا لتجارتهم وطعـامهم و (عيشهم) ...

ولا بُدّ أيضـاً من وضع حدود الزامية يتوحد عندها زي المرأة ، ويمنع عنهـا كل ما هو غير لائق بمكانتها كامرأة عربية ، وبمكانـة المجتمع كمجتمع عربي شريف . ولسنا نقصـد بذلك الزامهن بالاحتجاب من الفرق الى القدم ، ولكنـا نوجب أن يلتزمن الحشمـة التي تعبّر عن كرامتهن ، ولا تثير أنظار الشهوة نحوهن .

وليس لأحـد أن يزعم أنـه حرٌ في شأن أهلـه وعائلته ، ولا لواحدة أن تزعم أنهـا حرة في شأن نفسها ، الا اذا صح لأحـد أن يزعم أنه حرٌ في أن يتصرف بقانون السير والمرور كمـا يشاء ... فالعربة التي يسوقها صاحبها في عرض الشارع ويلتوي بهـا ذات اليمين وذات اليسار ، وذلك الذي يمشي وهو يزرع الشوارع العـامة بما شاء من أقـذار وأوساخ ، وأولئك الباعـة الذين يتخـذون مـن قارعـة الطريق العـام مخزناً تجـارياً لبيعهم ، وتلك التي تسير في هـذه الشوارع وبين أنظـار الشبـاب .. متعريـة متكشفـة ، لتستقبل الأنظـار فـن ميوعتها ولتخلّف مـن ورائها آثار فتنتهـا

ـ كل ذلك مظاهر للفوضى البشعة ، ومنابع للأضرار الجسيمة التي لا يجوز المكابرة في اختلاق الفروق بين بعضها والآخر .

وليس لواحد أو واحدة أن تزعم أيضاً أن ذلك قيد تأباه الديمقراطية التي يجب أن ننعم في رحابها . فالذين درسوا الديمقراطية في معناها الواضح البسيط يعلمون العلم اليقين أن الديمقراطية لا تخلو من قيود ، بل ولا بد لاستقامتها من وجود القيود . غير أن الفرق بين القيود التي يفرضها الوضع الارستقراطي والتي يفرضها الوضع الديمقراطي أنها في الحالة الاولى تكون لصالح القادة فحسب، وفي الحالة الثانية تكون لصالح الأمة والأفراد .

وليس لأحد أن يتأفف من هذا التنظيم بحجة أن في ذلك خدشاً لقدسية التقليد الأصمّ الأبكم .. وانحرافاً عن جادة الغرب وحضارته .. ذلك لأن الاساس الذي أقام عليه الغرب حضارته ، أساس لا يطيق هذا الشرق العربي ارساء مثله . فهو أساس كوّنت عناصره كما قلنا قبل هذا الفصل من أمشاج من الامهات ، والاطفال والأزواج الذين ضلّت بهم المدنية عن مثابة الأسرة وحبل النسب ... ! وحينما يقبل حضرات المتأففين هذا الاساس لحضارتهم ومدنيتهم فأننا نكون حينئذ في غير حاجة الى التربية الخلقية وقوانين التربية الخلقية التي نوجع رأسنا اليوم بالحديث عنها . ويقيننا انه لن يسود هذا الرضى والقبول في مجتمعنا ما دام هنالك متمدنون مثقفون

يجيبون على معاكسة المثقفين لزوجاتهم في الشارع بالرصاص يطلقونه عليهم ... ! (١)

* * *

وبعد فهذه هي الأسس المنظمة السليمة لمعالجة هذه المأساة في حياتنا الاجتماعية وهذه هي الطريق المودية من غير شك الى نتائج مرضية للذين يبحثون لهذه المشكلة عن حل . أما اذا كنا نأبى أن نعالج هذا الا بتلقف الحوادث والجرائم والترصد لها لنعاقب الواقعين فيها والمندفعين اليها ، فما أطرفها من معالجة يضحك منها المنطق السليم والبدهيات الواضحة .

أنا أشد عصابة على عينيك .. وأضع في طريقك الشباك ... وأحفر في مواقع قدميك الحفر .. ثم اترصدِ لك ، حتى اذا تلقفك الشباك أو هويت في الحفرة ، هرعت نحوك مؤدباً ومعاقباً ومربياً .. !

وتكون عطشاناً ، يلتاع كبدك شوقاً الى جرعة ماء ، فأعرض أمام عينيك الملتهبتين قدحاً بديعاً رقراقاً يشف عن ماء بارد زلال ، رؤيته وحدها تثير العطش ، وادنيه منك ، وأديره حول بصرك ، واغريك بالانقضاض عليه . ولكني أجعله مع كل ذلك فوق فمك ، ودون غايتك ، لانه ماء لا تملكه أنت ولا جدك ولا أبوك ، فليس لك أي حق في الارتواء منه ! !

(١) نشرت الصحف منذ ايام ان احد الموظفين ومعه زوجته بينما يسيران في بعض الشوارع اذا بجماعة من الاساتذة المثقفين يتحرشون بزوجته على مسمع منه . فلما انتبهم كان جزاؤه منهم الضرب والصفع ، فما كان منه الا ان اخرج مسدسا واطلق عليهم خمس رصاصات .. !

فقل لي أيها العاقل وحدثني ، ماذا يصنع هـذا المسكين المحترق عطشاً ؟ وأليس بدهيا من البدهيات أن يفقد أعصابه ، وينقض على ذلك الذي يذود عن هذا الماء ، ليرتوي من دمه قبل أن يرتوي مـن المـاء الذي يشتاق اليه ، ثم ينقلب فيلعن الشرائع التي تحرم ، والاخـلاق التي تمنع وتتحكم ؟ ! مع أن الشرائع ما جاءت في يوم ما لتجتث طبيعة او تخنق رغبـة ، وانما جاءت لتقوّم هـذه الطبيعـة في الافراد ، وتحقق سبل الرغبة المنظمة للجميع ...

مأساة الوعي الخلقي في مجتمعنا

.. صحيح أن من شأن الحكومات اقامة الروح التربوية الخلقية في مدارسها ، وحفظ مجتمعها من الأوبئة والأقذار التي تناقض عمل تلك المدارس . ولكن ليس من شانها وحدها أن تبث الوعي في نفوس الأفراد .

لعل أول ما يسترعي القارىء في صدر هذا البحث ، هو التساؤل عن حقيقة الفرق بين (السلوك الخلقي) و (الوعي الخلقي) .

والواقع أن هنـاك فرقاً كبيراً بينهما . وان أبسط مظهر لهـذا الفرق ، هو أنهما ليسا بمتلازمين . فكثيراً ما يُرى فرد" من الناس على حالة من السلوك الخلقي الحسن ، ولكنه يكون في نفس الوقت فقـيراً الى وعي خلقي كامل يجعلـه يعني كيف يقرر لنفسـه ذلك السلوك . كما أن معايير الوعي الخلقي قد تتكامل في نفوس بعض الشباب وعقولهم ، غير أنهم لا يجدون لديهم الطاقة الكافيـة لصب سلوكهم وأعمالهم في تلك المعايير .

فالسلوك اذاً هو الخطوات العملية في فجاج الحياة . أما الوعي فهو ما ينطبع في النفوس والأذهان ، من اعتبارات لقضايـا الخلق ، وحماس لتطبيق الحياة وفق تلك الاعتبارات .

واذا كانت معالجة السلوك الخلقي ــ حسبما حصرناها في ذينك السبيلين ــ موكولة الى الحكومات والمراجع ، فمن الظلم البيّن أن نحمّل معالجة الوعي الخلقي أيضاً للحكومات والمراجع وحدها .

صحيح أن من شأن الحكومات اقامة الروح التربوية الخلقية في مدارسها ، وحفظ مجتمعها من الأوبئة والأقذار التي تناقض عمل تلك المدارس . ولكن ليس من شأنها وحدها أن تبث الوعي الخلقي في

نفوس الأفراد . بل ولا تجدي هذه المحاولة نفعاً ، الا اذا كانت من عمل الأمة نفسها . أما تبعة الحكومات حيال ذلك فليست سوى أن تنشط وتعين وتيسّر أمام ذلك السبيل .

* * *

ولكي نـدرك سبيل (بث الوعي الخلقي في الجيل) يجب أن ندرك أولاً أن انحراف شاب في سلوكه الخلقي ليس ناتجاً عن كونه شريراً في طبعه ، أو خالي النفس من عناصر الخير والرشاد . ولكن ذلك ينتج في معظم الأحيان عن ظروف موبوءة خاصة حفت متتاليـة بذلك الشاب أيقظت فيه كوامن الشر التي هي كامنة لدى كل انسان ، ولم تتهيأ له في مقابل ذلك ظروف أخرى توقظ فيه كوامـن الخير ، فاستقلت به عوامل الشر وجرفته في تيّارها . ومن هنا كانت جـل مهمة (بث الوعي الخلقي) ايقاظ عوامل الخير في نفوس هؤلاء عن طريق انعاشها بتهييء الظروف الملائمة التي كانت محرومة منها .

ونستطيع أن نوجز مهمة (بث الوعي الخلقي) في : العمل على أن تُشرب نفسية الجيل حبّ المثل العليا ، وأن تلين عقليته لادراكها وتقديرها . وذلك عن طريق نشر الثقافة الاسلامية وروحها التربوية السليمة ، وعن طريق معالجات نفسية عامّة منظمة .

أمـا الوسيلة الى ذلـك فهي : انشـاء فروع متنوعة منظمـة متشـابكة ، بعضها يستهدف نشر الثقافة الاسلامية العامة ومعالجة ما يجدّ بين الحين والآخر من مناقشات ومشكلات حول بعض قواعد

الاسلام واحكامه ، وذلك عن طريق حلقات دائمة من المحاضرات والندوات والنشاط الفكري العام ، في مختلف الأحياء والاماكن .

وبعضها يستهدف الاكثار من حلقات المواعظ والنصيحة والارشاد، في المساجد وغيرها من الامكنة الشعبية العامة باسلوب حديث يتمشى مع ما انطبع عليه الجيل الجديد من أصول المنطق والتفكير (وهذا يقصد منه تقويم حياة العائلات والأسر ، ومحاولة تسرب الروح الوعظية الى داخل البيوتات) .

وبعضها يستهدف انشاء روح تربوية اسلامية قائمة على قواعد من أصول علم النفس ، وذلك عن طريق نواد عامة تفتح لهذا السبيل، يكون من شأنها جذب النشء اليها ، واتاحة الظروف المناسبة المختلفة من النشاط الفكري والعملي له ، حسب ما يلائم كلاً في رغبته واتجاهه ، بغية ايقاظ كوامن الخير في نفسه واستغلالها ليكون لها على صاحبها القوة والسلطان .

وبعضها يعمل على تركيز القواعد والمبادىء الاسلامية الدقيقة في الأذهان بواسطة ما هو معروف من العناية بالمؤسسات التعليمية لخصوص ذلك . (وهذا للتوقي من الحملات الاباحية والالحادية التي تسوق أمامها لسان الجدل والنقاش وترفع فوق رأسها راية العلم والمنطق) .

هذا ، ولا بد لكي تؤتي هذه الفروع ثمارها ، من أن تسير في عملها متفاعلة متشابكة كوحدة ومجموع ، لا متفرقة متدابرة كشيع

وأحزاب . اذ لا المحاضرات والنوادي وحدها تنتج ، ولا المواعظ وحدها تثمر ، ولا الدراسات العلمية الدقيقة وحدها تصلح حرزاً . ولكن مجموع المحاضرات والنوادي والمواعظ والدراسات هي التي تصلح أن تكون مصلاً مطهراً ضد المفاسد والأرجاس .

والآن علينا أن نجيل النظر في هذه الأمة ونتساءل : أي فئة منها ترى يجب أن تحمل اكبر مقدار من المسؤولية عن (بث الوعي الخلقي) في الجيل ؟

والواقع أنني وان كنت أنكر أن تكون بين المسلمين طائفة اسمها (رجال الدين) ذلك لأن كل مسلم في حدّ ذاته رجل دين ، وكل منّا راع وكل مسؤول عن رعيته ــ غير أنني أجزم بأن الفئة الأولى التي تقع على كاهلها تبعة هذه المسؤولية هي فئة السادة العلماء .. لا لأنهم هم وحدهم الذين وكل اليهم حفظ المثل العليا في المجتمع ، ولكن لأنهم أقوى فئة شعبية تملك الروح المسيطرة والقدرة على الاصلاح . ففي صوتها يتمثل دائماً دويّ الاسلام ، وفي مظهرها يتمثل شكل الخلافة الموروثة عن محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن فئة هذا شأنها لا يصلح غيرها لقيادة مثل هذه الحركة التربوية الكبرى (١) .

والحقيقة أننا نستطيع بحمد الله أن نفخر بوجود حركة اصلاحية

---

(١) لسنا هنا بسبيل البحث عن الأزهر ورسالته .. وانما يعنينا ان نستعرض الحركة الاصلاحية في القسم الشمالي من جمهوريتنا .

مثا في هذا السبيل من هؤلاء السادة .. فهنالك الوعاظ والدعاة الدائبون الى الحق ، وهنالك العلماء الذين لا يفتئرون عن نشر الثقافة الدينية في المجتمع ، وهنالك في بعض الأحيان المحاضرات التوجيهية العامة . ولكنا بالرغم من ذلك ، لا نستطيع أبداً أن نزعم بأننا نلمس أي ثمرة لكل هذه الحركات .. فلماذا ؟ لماذا لا تتغلب جهود هؤلاء الدعاة على شيء من هذا التيار الهاجم وهذه الشرور الكثيرة المتغلغلة ؟

ان ايضاح الجواب على هذا لا يحتاج الا الى العودة الى ما اشترطناه في الفروع التي تعمل على (بث الوعي الخلقي) . لقد قلنا انه يجب أن تكون فروع هذه الدعوة منظمة متشابكة ، ومعنى ذلك أنه يجب أن تشيع روح الثقة بين القائمين على هذه الفروع ، وأن يكون كل منهم موقناً بما يقوم به الآخر .

وهذا وحده هو الشرط الذي يفقده السادة العلماء .. وهذا وحده الأساس الكبير الأول الذي لم يستطيعوا ـ مع الأسف ـ الى الآن ارساءه وتقريره . فعلماؤنا لا تربطهم فيما بينهم رابطة ، وجهودهم فردية متفرقة شتى ، لا تجد روحاً جماعياً تكلؤها . وسياسة الدعوة الاسلامية في نظر أحدهم لايمكن أن تجدها تلتقي مع سياسة الدعوة لدى الآخر . ولقد كنت أتمنى أن لا أقول انما مرجع كل ذلك الى الاعتداد بالذات .. الى الشغف بالتسامي على الغير .. لقد كنت أتمنى لو عثرت على سبب آخر لهذا التفكك والتدابر ، ولكني

ـ ويا للأسف ـ لم أعثر .. لم أعثر على غير ذلك (١) .

ولو أنّ هذا لم يكن .. ، ولو أن سبل الدعوة والاصلاح فيما بينهم تلاقت واتّحدت ، ولو أنهم نظموا هذه السبل كما ذكرنا ... وتعاونوا جميعاً على تحقيق الوعي الاسلامي لآتى العمل ثماره ، وظهرت نتيجة الجهد ، ولانطلقت هذه النتيجة قوية جبارة تبدد كل شر ، وتصلح كل فاسد ، وتقوّم كل معوج (٢) .

* * *

ومن هنا نشأ فراغ كبير في هذا المجال .. مجال (بث الوعي الخلقي) بين أفراد هذا الجيل ، وكان أن نشأت من الفراغ هذه المأساة التي تتحدث عنها . فالنشء حيثما نظر والتفت يبصر غزواً أجنبياً مداهماً ... غزواً في الفكر والعقائد .. غزواً في الاخلاق والمقومات .. غزواً في المبادىء الاسلامية وتقاليدها . فاذا بحث عن عاصم من تيّار هذا الغزو ، لم يبصر من كل ما حوله الا تاريخاً

---

(١) ليس هذا وصفاً للجميع .. اذ ان من علمائنا الذين بين ظهرانينا اليوم من لا يقل بركة عن السلف الصالح . واني لأعتقد أن فيهم من لو اقسم على الله لأبرّ قسمه . ولكن وصفنا هذا ينطبق على معظم من يتصدرون في ميادين الاصلاح ، ثم لا يستطيعون ان يصلحوا فيما بينهم هذا الشقاق .

(٢) ذكرت الجرائد منذ حين ان العلماء قد اعتزموا على القيام بالقاء سلسلة من المحاضرات تتناول تطور التاريخ الاسلامي منذ الوحدة التي اقامها صلاح الدين ، الى وحدتنا هذه التي اقامها جمال . فاستبشرنا خيراً ، وتفاءلنا بوحدة مباركة اخرى بعد وحدة الاقليمين ... ولكنا لم نجد بعد هذا الخبر شيئاً ، ولم نسمع اي نبأ عن هذه المحاضرات .

غابراً يناديه من وراء جدران من القرون ... فأنى له أن يرحل عن أضواء حياة القرن العشرين الى تاريخ مضى واندثر ولم يخلفه من يجدّد فيه الحياة ويجعل منه حلقات تمتد وتتوالد مع كل قرن وعصر ؟

فاذا كان واقع مجتمعنا كذلك ... واذا كانت معظم الظروف التي تحيط بالنشء تخنق الوعي الخلقي فيه ... فمن أين للمأساة أن تنتهي ، وأنى للحكومات وحدها ان تعتصر من سبيلي التربية المدرسية ومراقبة المجتمع دواء كافياً لمحنة السلوك الخلقي ، بل وأنى للمجتمع نفسه أن يخضع لمراقبتها وحكمها ؟

رسالتنا في الحياة

.. اجل ، ان من الواضح ان رسالة الاسلام عاجزة عن مسايرة التيار الحضاري الداهم الينا من اوربا . ولكن ذلك لسبب بسيط يعرفه كل عربي صحيح ، وهو ان الاسلام ما جاء ليخضع يوماً ما لأي تيار حضاري جارف ، ولكنه جاء ليخضع هو الحضارات كلها طبق مبدئه وسبيله .

ان علينا أن نختار لحياتنا أحد سبيلين :

اما أن نذوب وتتلاشى في تيار مدنية أوربا وحضارتها ، ونستبقي من تاريخنا العربي كله ورقة تتقاذف على وجه العباب ، كتب عليها : (القومية العربية) .

واما أن نجمد ونستصلب ، ونجعل من قوميتنا العربية عصباً ممتداً في كينونتنا وحياتنا ، يورثها الاستقامة ، ويحفظها من الاعوجاج والانحناء .

فان قنعنا بالأول ، فلنتبنّ السبيل الذي يدعو اليه من يدعون أنفسهم : (المتمدنين) ، من الاحتفاظ بشعارات عربية في اللسان ، والانطباع بحياة اوربية كاملة في الروح والاتجاه .

أما ان اخترنا الثاني ، فعلينا أن ندرك بسهولة أن القومية العربية ليس لها من معنى ان لم تكن رسالة . وعلينا أن نعمل في تكاتف واخلاص على انتهاج سبيل هذه الرسالة وحدها .

وقد نسمع بسبيل (خيالي) ثالث ، يبتدعه الذين لا يجدون في نفوسهم عاصماً عن أن يكونوا ذيولاً لأوربا ، ولكنهم يشتهون في الوقت نفسه أن يحتفظوا باتتساب فخري لهم الى تاريخهم العربي ، وهو محاولة التوفيق بين رسالة العرب وحضارة الآخرين . غير أن النتيجة الواقعية التي لا مفرّ منها ، لا تعدو أحد السبيلين السابقين .

ذلك لأن من أوضح أمثلة المستحيل ، التوفيق بين رسالة الاسلام ورسالة أوربا . فهذه الثانية انما ظهرت نتيجة تفاعل عدواني شديد في نفوس الأوربيين ضد الاسلام طيلة العصور الوسطى .. فأنى لهما في حين من الدهر أن يصطلحا ويلتقيا ؟ !

وهؤلاء (الخياليون) لا يروجون هذا السبيل الخرافي لجهل منهم بطبيعة المستحيلات أو شواهد العلم والتاريخ . ولكن الحقيقة أنهم لا يحبون أن يعترفوا بأن القومية العربية قائمة على رسالة ، بل انهم يتمنون لو لم يكتشفوا أو تكشف لهم الحقيقة أنها تحمّل أهلها تبعة مبدأ ورسالة .. وتفرض عليهم سلطانها .

وقد يدافع بعض هؤلاء (الخياليين) عن وجهتهم ، بأن الاسلام اليوم عاجز عن ملاءمة الوقت ، ولم يعد صالحاً لمسايرة هذا الانقلاب الحضاري الداهم الذي يفرض نفسه في كل مكان .

غير أن من سوء حظ هذه الحجة ، أنها جاءت متأخرة عن ظرفها الملائم ألفاً وثلاثماءة وسبعاً وسبعين سنة . فلو أن قائلها احتج بها في صدر الاسلام عندما بدأ يرتفع صوته شاذاً عن اتجاه التيارات المدنية والحضارية والدينية جميعها ، لاستطاع أن يكسو حجته من قوة العادة والطبيعة التي تفرض أن يسير كل شيء في اتجاه التيار العام لا معاكساً له . ولكن أما وقد وقعت المعجزة ، واستطاع الاسلام أن يحوّل مجرى العالم كله بسائر حضاراته ومدنياته ، ومرت ثمانية قرون بعد ذلك ، كلها تؤكد انتصار القوة الخارقة في

الاسلام ــ فان هذه الحجة لم تبق فيها أي ذرة من خطورة أو شعاع من المنطق .

أجل ، ان من الواضح أن رسالة الاسلام عاجزة عن مسايرة التيار الحضاري الداهم الينا من اوربا . ولكن ذلك لسبب بسيط يعرفه كل عربي صحيح ، وهو أن الاسلام ما جاء ليخضع يوماً ما لأي تيار حضاري جارف ، ولكنه جاء ليُخضع هو الحضارات كلها طبق مبدئه وسبيله .

وكلمة (لم يعد صالحاً ..) التي لا يفتؤون يرددونها ، تنبىء عن مدى خلطهم وسوء وعيهم عن تاريخهم العربي الاسلامي . فمتى كانت رسالة الاسلام تساير حضارة مداهمة ، حتى يقال انها اليوم (لم تعد صالحة لأن تساير ..) ؟ ولو كان مقياس صلاحية الاسلام هو هذا الذي يتوهمون لما انقشعت حضارة الرومان الى هذا اليوم عن بلاد الشام ، ولا تقلّصت مدنية الفرس عن بلاد العراق ، ولا انحسرت التيارات المختلطة عن أراضي مصر .. ولما بقي للاسلام في هذا العصر اسم أو مسمّى يعرف .

ان ربعي بن عامر حينما أراد رستم أن يشعره بأن حضارة الفرس شعاع شمسي يلمع في الدنيا كلها ، وأنها تتهادى في تيار من ماء الذهب والجواهر والاستبرق ، فليس لحفاة العرب المحترقين في لهيب الصحراء أن يطمعوا بمناوأتها والنيل منها ــ لم يتصاغر في نفسه قائلاً ان حضارة الاسلام لا تستطيع أن تساير أو تقف الى جانب

التيار الفارسي الداهم . ولكنه راح يتوكأ برمحه المسنون على فرش الذهب والاستبرق والحرير التي مدت بين يدي رستم ، متعامياً عن بريقها ، متجاهلاً أنها شيء غير حقارة الأرض وترابها ، ليرد عليه ويشعره بأن الحضارة الالهية شيء فوق بريق الذهب والاستبرق ، وأن الباب الذي فتح لهم ليدخلوا منه الى عروش الدنيا هو أوسع بكثير من هذا الباب المادي الذي لا يملكون هم غيره ..

والمشكلة هي أن هؤلاء (الخياليين) يظلون عاجزين عن أن ينظروا الى شؤونهم بعيون عربية . فهم دائماً يستعيرون نظارات أجنبية لتجهر أمامهم سبيل الحياة في بلادهم من الوجهة الأجنبية عنهم فقط . والا فلماذا لا يقولون : ان حضارة أوربا عاجزة عن مسايرة حياتنا ، لأنها لم تعد صالحة لأن تلائم حقائق الاسلام وروحه ؟ وما المرجح لأن يعكسوا هذه الجملة ، ويعتذروا عن قبول الاسلام لأنه لا يلائم حضارة أوربا ؟

* * *

ان علينا أن ندرك الفرق بين صلاحية الاسلام للحياة ، وصلاحيته للانضواء تحت سلطان الحضارات الأخرى .

فأما أنه صالح للحياة فهو أول عهدة دائمة يأخذها الاسلام على عاتقه لمن اتبع سبيله واسترشد بهديه . (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ..) . وأما أن يقبل الانضواء تحت سلطان مّا لأية أمة ، فذلك ما يتنزه عنه الاسلام ويأباه . (وان

هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل .. فتفرق بكم عن سبيله) .

والحياة التي يتيحها الاسلام لأهله ، حياة قائمة على عقد الصلح بين العالم والوجود ، لا على انتزاع الوجود من أمة ليسلّمها لآخرين ، أو على أن تكون سلعة تتداولها الأمم على سبيل التبادل والتنازع . (يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) .

ويخطّ الاسلام في سبيل تقرير هذه الحياة ثلاثة خطوط عريضة من المبادىء العامة .

أما المبدأ الأول فهو الايمان باله هذا الكون وسر وجوده ، واختصاصه وحده بالعبادة والتعظيم دون سائر المتألهين والمخلوقين .. ومن هنا قامت ثورة الاسلام على أولئك الذين استعبدوا شعوبهم واتخذوا من كواهلهم عروشاً يتألهون عليها . ومن هنا أصبح أدنى رجل في المسلمين يجيز على اعلاهم (١) .

---

(١) في وقعة القادسية ، قبل أن يبدأ القتال بين المسلمين والفرس ، أرسل رستم الى امير المسلمين ان ارسل الينا رسولاً نكلمه فبعث اليهم المغيرة بن شعبة ، فلما جاءه وجده جالساً على عرش كبير والدهماء من حوله راكعين له . فأقبل حتى جلس معه على السرير ، فهرع اليه الاعوان ليجذبوه فقال لهم : (لقد كانت تبلغنا عنكم الاحلام ـ حسن التفكير ـ ولكني لا ارى قوماً اسفه منكم . انا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضاً ، فظننت انكم تواسون بعضكم كما نتواسى . وكان احسن من الذي صنعتم أن تخبروني ان بعضكم ارباب بعض ... اليوم علمت انكم مغلوبون) .

والمبدأ الثاني هو وضع المثل الروحيـة العليا في مكان الغايـة المقدسة من الحياة ، واتخاذ العنصر المادي منها سبيلاً منظماً محترماً الى تلك المثل .. (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) . فلا هو يبرر حياة روحية متزمتة تعيش من العالم في كهف منعزل غريب عنه، كما تتكلف لذلك الفلسفة البوذية.ان الرسول يرد على ذلك قائلاً : (أمّا أنا فأصوم وأفطر وأصلّي وأنام وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني) ولا هو يرضى أن تتحكم المـادة وحدها وتكون هي الغاية المقدسة مـن الحياة كما تتكالب عليهـا حضارة أوربا ويلبسون في سبيلها المخالب والأنياب .

ومن نتيجة هـذا المبدأ الثـاني أن يصبح المسلمون في ظـلّ الحضارة الالهية أسرة واحدة ، أفرادها متحابون متساوون ، لاتعثو جباههم الا لربهم الواحد الكبير ، ثم أن يصبح كل ما تحت ايديهم من ما لومتاع مقتسماً بينهم في غير تطاحن ، كافياً لجميعهم بالعدل . ذلك لأنهم يستمتعون به وسيلة الى العيش ، لا سبباً للتأله والاستعباد . وكان من نتيجة هذا أيضاً أن أعطى الاسلام للعلم قداسة وأيما قداسة ، اذ هو السبيل لاستقرار حياة الانسان على هذه الارض في سعـادة ورفاهية . وحسبك أن تعلم أن الاسلام يدفع المسلم الى اجتـذاب الحقائق العلمية من أي جهة أمكن ، ويعتبر الحكمة ضالة المؤمـن فحيثما وجدها فهو أولى بها .

والمبدأ الثالث ، هو ارساء قواعد تشريعية لضمان العدالة في شتى نواحي الحياة من حقوق مدنية وأحوال شخصية وشؤون قضائية ، وفي كل ما يتعلق بالاقتصاد والسلم والحرب وغير ذلك .. ولقد كان من أسرار خلود هذا التشريع أن نص على جميع القواعد الكلية من سائر هذه الفروع ، ولم يدع للزمن والتطور الحضاري صلاحية في التصرف بها ليحتفظ بجوهره وروحه ، ثم عهد بمعظم الجزئيات المتفرعة عن تلك القواعد العامة الى الخليفة الاسلامي العادل ، مع منحه الخطة الاجتهادية التي ينبغي أن يسير على هداها وأن لا يتجاوزها . وبذلك يجري بالمسائل المتعلقة بعجلة الزمن حسب تطوره مع الاحتفاظ في نفس الوقت بالروح الاسلامية الموجهة حتى في هذه الجزئيات نفسها .

وضمان الوحدة الاسلامية الشاملة لهذه الحياة الدنيا والحياة الأخرى معقود أولاً وآخراً بسلسلة مؤلفة من ثلاث حلقات هي : العقيدة ، العبادة ، التشريع . فالعقيدة ضمان لتطبيق التشريع وتحري الدقة فيه ، والعبادة ضمان لبقاء العقيدة حية مزدهرة في النفس . اذ ان امواج هذه الحياة وفتنتها تجعلها دائماً في خطر وتجعل الانسان عرضة للغفلة عنها فكانت العبادة الدائمة في شتى صورها وانواعها منبهاً مستمراً الى العناية بالعقيدة . ثم هذه الحلقات الثلاث كلها ضمان لاسعاد الفرد والمجتمع في المعاش والمعاد .

* * *

هذه هي الحياة التي يتعهد الاسلام لأهله بحفظها واتاحتها لهم بعيدة عن كل شقاء في كل عصر وزمن • فأي نقص يتراءى في هذا النوع من الحياة حتى نقول : ان رسالة الاسلام لم تعد صالحة لحياتنا اليوم ؟

ان عدم صلاحيتها آت من اصطدامها بشهوات أوربا التي اتخذت مثابتها عندنا في كل شارع ومجتمع وبيت • عدم صلاحيتها آت من أنها لا ترضى أبداً بالمعايير الخلقية المصممة في أوربا والمستوردة الينا في بلادنا العربية • عدم صلاحيتها آت من أن أكثر نشئنا هذا ترعرع على التجرد من كل مظهر من مظاهر التنسك والعبادة والتقيد بمعاييرها • فمن الصعوبة بمكان أن نلزمه بما اشتهى أن يتجرد ويتفلّت منه • عدم صلاحيتها آت من أن أوربا علّمت هؤلاء كيف يتعشقون من الحياة المادة فقط ، ويؤمنون منها بالمادة فقط ، حتى اصبحت فكرة الاله نفسها غير صالحة لهذا الزمن في اعتبارهم •

هذه هي العقبات التي جعلت الاسلام في نظر هؤلاء غير صالح لهذا الوقت • وانها كما تجد ، عقبات صبيانية ، كتلك الشهوات او اللعب التي يبكي من ورائها الأطفال عندما يلمحونها في السوق او لدى الباعة •• وبدهي أن الذين يبكون من وراء هذه الشهوات عندما يمنعهم الاسلام اياها ، ليسوا هم الذين يقدرون (القومية العربية) قدرها أو يفكرون في خدمة التاريخ العربي أو يقلقون من

أجل ضياع حقهم العربي ... انهم يعيشون في الحياة من اجل شيء واحد فقط ، وهو شهواتهم .

* * *

وبعد هذا كله فان أمثال هؤلاء ، حينما يجادلون في قضايا الاسلام والدين ، يتصورون أنفسهم كما لو كانوا فئة من الجنود تتمرد على قائدها في بعض ما يحملهم عليه ، أو ثلة من الشعب تحاول اسقاط الحكومة وتجابهها بالعصيان ، أو كتلة برلمانية تأبى الا أن تعدل مادة من الدستور ..!

ولكن اله الكون لا يشبه القائد العسكري أو رئيس الحكومة أو اللجنة العليا للتشريع .. انه مبدع هذا العالم كله ، فله وحده أن يتصرف في هذا العالم كما يشاء . وهو عندما يصدر للعالم أحكامه ، لا يفتقر الى أن يسلك السبيل الى اكتساب اكبر جمهرة مؤيدة من الشعوب . انه يحكم بما يشاء ، ولا معقب لحكمه . وبلاغه الذي أعلنه على عباده : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الاسلام دينا) ليس قراراً حكومياً الى الشعب قابلاً للتعديل أ الاستئناف ، وانما هو حكم جبريء الزامي تنزّل من لدن بديع السموات والارض الى الصفوة المختارة من مخلوقاته . وهو عقل مستقل بنفسه أي انه حجّة لذاته ، فمن الحق أن يراد منه الخضوع لحكمِ أو تصرفِ العقول . والذي أعلن العصيان له والخروج عليه ، فانما هو يدعي بذلك أنه على استعداد لأن يتحرر

عن مملكة الله ، ويستقل عن حكمه في عالم آخر ... فعليه قبل أن يجادل الله بتلك الذرّة التي وضعها في رأسه من العقل ، أن يستنجد عقله في انشاء ذلك العالم الثاني الذي يريد أن يعيش فيه متحرراً عن قوة الله وسلطانه .

أما كون هذا السبيل الذي ألزمنا به يتلاءم مع حياة متكاملة النعيم ، فذلك تفضل منه واحسان ، لا ثمن لتقبل الأوامر والخضوع للأحكام .

رسالتنا ... والحرية

.. ان علينا قبل كل شيء أن ندرك أن ميلاد هذه الكلمة في الأذهان ، يرجع الى أواسط عهد الاستعمار في بلادنا . ولعل من الغريب في الأسماع ان نقول انها كلمة أولدتها سياسة الاستعمار نفسه ..! فكيف ذلك ؟.. ولماذا ؟...

من الكلمات التي تأخذ مكاناً متألقاً من صفحة مجتمعنا اليوم ، وتتجلّى فيه بأحرف لمّاعة وضيئة ، كلمة : (الحرية) ... الحرية بمعناها العام ، أي الحرية في القول ، والحرية في الرأي ، والحرية في العمل والسلوك ، و ... الخ . ولعلك تستطيع أن تقول انها كلمة الموسم في هذا العصر ، أي انها كلمة القرن العشرين .. أي الكلمة الدولية التي تجري على كل لسان ، وتمر بكل حلم .

ومن شأن مثل هذه الكلمات التي تستأثر باهتمام الافراد وحماسهم ، وتتخذ قرارها المكين في أحلامهم وأفكارهم — أن تكون قد أذيبت دراسة وتحليلاً ، وفهماً للمصدر الذي أتت منه والنتيجة التي تنتهي اليها . ولكنّ في اعتقادي أن كلمة (الحرية) على الرغم من احتلالها مكان الصدارة من الاحلام والالسن ، وعلى الرغم من اكتناف التعليقات والشروح بها — لا يزال معناها خفيّاً عنا ، ولا نزال بعيدين عن تحليل مصدرها وموردها وطبيعتها .

* * *

ان علينا قبل كل شيء ان ندرك أن ميلاد هذه الكلمة في الأذهان ، يرجع الى أواسط عهد الاستعمار في بلادنا . ولعلّ من الغريب في الاسماع أن نقول بأنها كلمة أولدتها سياسة الاستعمار نفسه .. ! فكيف ذلك ؟ .. ولماذا ؟ ..

ان روح التحرر في الواقع من الأمور الطبيعية التي تركن اليها النفوس ، ويلذ لها الانطلاق في ميدانها . ولا ريب أن جثوم المستعمر فوق صدور الأمم يعني انغلاق أوسع باب لهذا الميدان في وجهها . والنتيجة الطبيعية لذلك أن تتجمع في النفوس عوامل الثورة للانقضاض على ذلك الباب وتحطيمه ...

ولكي يتفادى المستعمر هذه النتيجة ، فقد كان من خبثه ومكره أن يشغل النفوس عن الانتباه الى القفل الكبير الذي أوصد به بابها الطبيعي الشرعي الى ميدان التحرر ، وذلك بصرفها الى المنافذ والثقوب التي أوصدتها ـ لحكمة ـ الشرائع والمباديء والتقاليد .. وغايته من وراء ذلك أن يحيل ـ بالتدريج ـ مظهر الباب المقفول امام تلك الشعوب ظلماً وعدواناً ، الى مظهر جدار طبيعي قائم ، لا يعقل أن يهدم أو يثقب ، أما مجال الانطلاق والتحرر الانساني فهو تلك النوافذ الاخرى التي أغلقتها ما يسمونه بالشرائع والاخلاق همجية ورجعية وظلماً ... ! !

وان كلاً منا يذكر فرنسا ـ يوم كانت جاثمة في بلادنا ـ كيف كانت تسلك بنا هذا السبيل الماكر الى تلك الغاية . لقد كانت تغرينا باسم رسالتها الحضارية والتحررية ، بتحطيم كل ما ورثناه عن تاريخنا وما عرفناه من مقوماتنا واخلاقنا ، لأن كل ذلك في نظرها أغلال .. أغلال تقيدنا وتحرمنا من متعة المدنية الحديثة وحضارة القرن العشرين التي قامت على تحقيق كل رغائب الانسان .

ولقد عرفت فرنسا ، وعرف كل عاقل وأحمق على وجه الارض ، أن فرنسا لم تكن لتقلق الى هذا الحد من اجل راحتنا ومن أجل اننا لا نتمتع بكل رغائب الانسان .. وما كان كبدها ليتحرق كل هذا علينا من أجل أننا مقيدون في الاغلال ..

ولكنها كانت تبغي أن يكون سبيلنا الطبيعي في التحرر والاستقلال بعيداً عن مجال منفعتها منا ، نائياً عن الطريق الذي تمتص منه حقنا وكرامتنا . وليكن ذلك السبيل منحرفاً بعد ذلك نحو أي جهة أخرى ، ليكن جارياً على حساب ديننا ومبدئنا وتاريخنا .. فان لها في ذلك تجارة بربحين ، ربح استغلالها لبلادنا وحقنا ، وربح تحطيم مبادئنا والثأر من ديننا وشريعتنا .

* * *

والشيء الثاني مما يجب أن ندركه بدقة ، هو أن من المستحيل أن يتمتع انسان ما بحرية تامة نزيهة كما تتخيل أو نظن . وكلمة الحرية لا يمكن أن تتحمل كل ما يحمّلها بعض الناس من أماني وغايات .

اذ أن دوافع الانسان نحو سلوك ما محصورة في ثلاثة قوى . فاما أن تكون هذه القوى هي العقل والمنطق السديد ، أو دافع التشبه والتقليد (وهو دافع نفسي برأسه لا يستمد قوته لا من العقل ولا من التشهي) ، أو دافع الشهوة والاهواء .

فالانسان على كل حال مستعبد استعباداً كاملاً لأحد هذه الدوافع الثلاثة . ولئن استطاع أن يتحرر عن توجيه الموجهين وتقليد الآخرين فانه لن يستطيع أن يتحرر من كلا السلطانين الآخرين ، ولئن استطاع أن يفلت من سطوة أحدهما فما من شك في أنه سيظل مستعبداً لسطوة الثاني .

ولكن تحت أي هذه القوى يضع الانسان تصرفه ، ولأي مملكة من هذه الممالك ينضوي ويخضع ؟ ان الانسان هنا فقط يملك حرية تامة صحيحة ، وفي هذه اللحظة فقط يستطيع أن يشعر بامتلاكه لزمام أمره . فهو يملك خياراً تاماً في أن يسلم زمام أمره الى أي هذه السلطات يشاء .. وعليه في تلك اللحظة أن يفكر في البحث عن أنبل تقيد واشرف استعباد واعدل سلطة من هذه السلطات .

ومن منا لا يدري أن أعدل مملكة من هذه الممالك الثلاث هي المنطق والعقل المتدبر الحكيم ؟ ومن منا يجهل أن أشنع استعباد وأرذل تقيد هو ما جاء عن سيطرة النفس الثائرة والنزوات العابرة والتقليد الأعمى ؟

* * *

ان كثيراً من الناس ينادون دائماً بالحرية ، يدعون اليها في كل مجال ، ويحببونها الى كل عقل ، ويدخلون هواها في أذهان الناشئة من هذه الأمة . ولكن الا يجدر بنا أن نمعن في واقعنا الذي نعيش فيه لنتبين مدى اقترابنا من هذه الحرية وتلمسنا لها ؟

لقد ارادوا أن يكونوا أحراراً في أقوالهم ، وأرادوا أن يكونوا أحراراً في كل اتجاهاتهم . فماذا فعلوا حين أرادوا ذلك ؟ لقد استجمعوا جرأتهم ثم قفزوا قفزة جعلتهم من هذه الحرية أبعد ما يكونون !

ولقد كانت النقطة التي قفزوا منها هي تراث هذا الشرق العربي الاسلامي ...

صحيح أنه تراث لا تتراءى فيه روح التفلت والتحرر ، ولكنه على كل حال يأبى أن ينحني وينقاد يوماً ما الا لسلطان العقل وحده . وشعاره في سلوكه دائماً هو : خذ « الحكمة » .. ولا تبال من أي وعاء خرجت .

أما النهاية التي قفزوا اليها ، فهي شهوات اوربا ومدنية اوربا .

صحيح أنها نهاية متحررة عن تقاليد الشرق وشعاره ، ولكن من الذي يجهل أنهم تحرروا من هناك ليتصاغروا مستذلين تحت سلطان النزوات البدائية والتقليد الأصم الأبكم هنا ؟ أما شعار هذين السلطانين فهو : متّع حيوانيتك ، ولا تبال أكانت حكمة أم جنوناً .

أما الطاقة التي دفعتهم الى تلك القفزة فليست هي الروح التحررية كما وهموا .. ولكنها استجابة لتلك الحيل الاستعمارية التي كانت تسير نحو غاية مرسومة طبق مصالحها . ومهما يكن من أمر الاستعمار معهم بعد ذلك ، فان تلك الاستجابة لديهم ليست سوى اشارة الى مكان المملكة الاستعمارية الجاثمة في نفوسهم .

وقد يدافع هؤلاء عن أنفسهم فيقولون : ان ما نريده هو أن

تنجلي عن بلادنا يد الاستعمار وجيوشه . وما دام هذا قد تم فلنا أن ندع ما نشاء ونأخذ ، ولنا في حياتنا الاستقلالية أن نترك تاريخاً ونأخذ غيره .

فانظر ..! أليس هذا منطق قوم يعترفون بضعف كينونتهم ، وبأنهم فقراء الشخصية والابداع ، لامندوحة لهم عن الاتكاء على عصا الغرب أو الشرق ، ولا غنى لهم عن استجداء مناهج الحياة ومقوماتها من الآخرين . فضلاً عن أنهم لا يملكون عقلاً يستطيع أن يدرك أنهم حملة رسالة .. قادة تاريخ .. ورثة مبدأ ونظام وشريعة .. ومن ثمّ فهم لايملكون شخصية معتزة تستطيع أن تهضم فلسفة الحياد الايجابي وتتبنّى المساهمة في ارسائه وتقريره .

ومثل هؤلاء الناس حينما يحاولون أن يتحدثوا عن القومية العربية ، يبتعدون بمفهومها ما أمكن عن ظل المبادىء وتبعة الرسالة .. وحينما يريدون أن يكونوا بارعين في تحليل مفهوم القومية العربية لا يزيدون على جعلها نتيجة تفاعل نفسي في أمة اتحدت في اللغة والمشاعر والبقعة الجغرافية ..! ولعلك تحسّ كيف أن هذا التعريف يصور لك القومية العربية أشبه ما تكون بعائلة متكتّلة منعزلة كل ما تبتغيه هو أن تغلق على نفسها باب دارها لتستقرّ في ركنه بأمان ..

ولو أن قادة العرب السابقين ممن صنعوا تاريخنا العربي ، فهموا القومية العربية على هذا الشكل لما كان للعرب اليوم أرض من عالمنا هذا سوى شبه جزيرتهم المنعزلة القديمة التي

تحدّها سورية من الشمال ، والفرات من الشرق ، والبحَر الاحمر من الغرب . فذلك المكان هو وحده مهدهم الجغرافي ، وهم وحدهم الذين كانت تجمعهم اللغة العربية ، وهم وحدهم الذين كان يشيع فيهم الشعور والدم العربي كما يقولون .

ولكن التاريخ العربي لا يتعرف على هذه الصورة المتقلّصة الرجعية عن مفهوم القومية العربية . انه يعرفها بالشعور العربي الذي يتوحّد على رسالة ويجتمع على محور من المبدأ ، ثم يتحمّل في ثورة موحدة تبعة أدائها ونشرها في كل جهات العالم . ومن ثم فقد استطاعت القومية العربية أن تقتلع جدران حدودها الجغرافية ، ثم تتمطّى وتنتشر في شرق العالم وغربه ، واذا بمملكة فارس ودولة الرومان ، واذا بشرق العالم الى الصين وغربه الى أواسط أوربا — اذا بكل تلك الأصقاع فروع للجزيرة العربية ، واذا بمعظم أهلها ينطقون بلغة الضاد ، واذا بهم يتخذون أمكنتهم كأعضاء عاملين في مجلس القومية العربية !

وسبب ذلك أن القومية العربية — في تاريخنا العربي — انما قامت على مبدأ ... مبدأ لا يعترف بأنانية ولا يحصر الخير لطائفة أو عنصر أو جماعة ، شأن القوميات الأجنبية الأخرى التي حدثنا عنها التاريخ ... وانما هو مبدأ يصنع السعادة لكل من على هذه الأرض ويمد ظلال الأمن والسلامة في كل شعب وأمة . ومن ثم فقد كان هذا المبدأ عمادها الذي عصمها من الانهيار ، وطاقتها التي بعثت فيها النمو

والاتساع . وكان هذا المبدأ هو رسالة الاسلام .. رسالة العرب الى العالم .

غير أن هؤلاء لا يريدون القومية العربية كذلك .. انهم يريدونها رجعية تنفصم عن المبدأ ، وتتراجع متصاغرة متضائلة الى داخل جغرافيتها الصغيرة التي انطلقت منها . وهم بذلك يناقضون أنفسهم مناقضة صارخة في زعم أنهم تقدميون ! فلماذا ..؟ لماذا يريدونها ممسوخة كذلك ..؟!

انهم يشتهونها هكذا لأنهم يتضايقون من تبعة المبدأ ، ولأنهم مقيدون ، مقيدون بأغلال (الحرية) ... ولذلك فهم ليسوا على استعداد لتجديد رسالة وقيادة مبدأ . وخير ما يجمع لهم بين التحرر من تبعة المبادىء والتقاليد ، ومظهرهم القومي العربي ، هو أن يفسروا القومية العربية هذا التفسير الذي لا يحوجهم الى تعب ولا يقيدهم بشيء .

* * *

ولكن الرسالة على كل حال قد بدأت اليوم تعود ... والمفهوم التاريخي لقوميتنا العربية هو الذي أخذ ينتصر . لقد أخذ كل ذلك يتجلّى ويفرض نفسه على يد قائدنا المؤمن العربي الصادق : جمال عبد الناصر .

فخير لنا جميعاً أن نحطم أغلال هذه (الحرية) ... ونستبق الى

احياء تراثنا ... ومبادئنا .. وأخلاقنا .. لنعيد اليوم الذي يحدثنا عنه التاريخ بأننا كنا فيه متبوعين لا تابعين .

ولنعلم جميعاً أن الانسان لن يستطيع أن يكون حراً في ذاتـه مهما جهد . ولكنـه يستطيع أن يتقرب الى الحريـة . وان أقرب ما يكون الانسان الى الحرية حينما يسلم مقادته لعقله ويدخل تحت سيطرة تفكيره السليم . وان أبعـد ما يكون الانسان عنها حينمـا يستذل لهواه ويستكين الى نفسه ويركن لحيوانيته .

رسالتنا ... والأدب

.. ولكنا نجد قادة الأدب في هذا العصر قد اخرجوا الأدب العربي عن سبيله ، والبسوه هو الأخر قبعة وحلة اوربية وشدوا عنقه برباط افرنجي ، ثم سخروه سفيراً بين مدنية اوربا ونفسية هذا الشعب العربي ! فهل من شيء يدعو الى الأسف ويملأ القلب مرارة وأسى اكثر من هذا ؟

الأدب ، هو الباب الشعبي الكبير الى ميادين الثقافة والعلم .

والأدب ، فلسفة عملية عن الحياة والنفس .. تقدّم الى العقول الليّنة المدلّلة في مدرسة مضمخة بالعطر ، قائمة وسط ظلال أشجار الورد والياسمين ..

والأدب من أجل ذلك ، أعظم رسول بين العقل الشعبي العام ورسالة ذلك الشعب في الحياة . انه المتعهد الوحيد لتلك العقول بأن يشربها فلسفة تلك الرسالة وروحها بأسلوب واقعي عملي ، بعيد عن الافتراضات والنظريات الأكاديمية ، ودون أن يحوجها الى أي انعصار أو انحباس مجهد في هذا السبيل .

فهل يباشر أدبنا العربي اليوم هذه المهمة ويقوم بهذه السفارة ؟

ان من المؤسف أسفاً بليغاً أن يكون الجواب : لا .. لا ، بكل مرارة وتأكيد قاطع .

اننا في الوقت الذي نبحث فيه عن سبيل شعبي محبَّب يدخل الوعي العربي الصحيح الى العقل الشعبي العام ويسقيه روح الرسالة العربية المقدسة ــ نجد قادة الأدب في هذا العصر قد أخرجوا الأدب العربي عن سبيله ، وألبسوه هو الآخر قبعة وحلّة أوربية وشدوا عنقه برباط أفرنجي ، ثم سخروه سفيراً بين مدنية أوربا ونفسية هذا الشعب العربي ! فهل من شيء يدعو الى الأسف ويملأ القلب مرارة وأسى أكثر من هذا ؟

خذ أي قصة من معظم هـذه القصص التي تسمى : (أدبيـة) واقرأها من الغلاف الى الغلاف ، فانك لن تجد فيها سوى حياة اوربا وملاهي أوربا ومجتمعات أوربا وعقلية أوربا • ولن تبصر فيها مقابل كل ذلك حرفاً واحداً يربطك بأيّ نسب الى عروبتك التي تسري في دمك وفؤادك !

واستعرض معظم قصائد هؤلاء الذين ينتحلون لأنفسهم شاعرية الأدب الحديث •• فانك لن ترى فيها سوى أسلوب الشعر الأوربي ، ولن تبصر من خلالها سوى الاخلاق الأوربية نفسها مكثفة في مظهر ما يسمونه بـ : (المكشوف) و (الرمزي) •• ثم لن تعثر مشاعرك في خلال ذلك على هزة في بيت منها تبعث فيك كوامن تاريخـك العربي أو تسوق منك الـذهن الى رسالتك العربية التي ولت مـع التاريخ !

واقرأ أي كتاب أدبي في النقد والتحليل ، فانك لن تجد الألفاظ العربيـة وحروفها ـ في معظم تلـك الكتب ـ الا مسخرة لمعـان واصطلاحات ومجارٍ أوربية ليس لها أي ارتباط بجوهر الأدب العربي في أي عصر من تاريخه • فالكلاسيكي والرومانتيكي والتراجيدي ، والتجريبي والرمزي والمكشوف ، وما لف لفيف ذلك ـ هو وحـده عماد الأدب العربي الصميم ••!! ومن تتمة الخزي المخجل أنك ترى الكاتب الأدبي في كثير من الأحيان غائصاً الى قمة شعره في هـذا النوع من النقد والتحليل في نشوة وطرب ، بينما العفونة اللغويـة

الظاهرة تتصاعد من المادة الشعرية أو النثرية التي يتناولها بنقده الثقيل المتكلف ، وهو غير شاعر بها ! (١)

* * *

ومرجع المشكلة في هذا يعود مرة أخرى الى الطامة الكبرى التي جرها هؤلاء على أنفسهم في سذاجة وفخر ... مشكلة التداعي والانسياق الذاهل الاعمى وراء الغرب .

ان هؤلاء يشتهون أن تكون الروح الأدبية في لغتنا هي نفس

---

(١) الأمثلة على ذلك مع الأسف لا تحصر ، ولكنا نفضل ان نورد بعضاً منها للاستطراف والتفكهة .. هذا احدهم يتناول بتحليله الأدبي المغرور في مجلة من مجلات الآداب .. المعروفة قصيدة يقول فيها صاحبها : (.. في البزة الفخيمة التطريز ، اذ يعبرون مثل جيزان الذهب) دون ان يدرك ان كلمة (فخيمة) على هذا الوزن ، اي على وزن (وخيمة ..) قد اسقطت القصيدة كلها في الوحل . والأدب العربي في اي نوع منه لا يتعرف على هذا الوزن للصفة المشبهة في هذه الكلمة . ثم ينتشي اديبنا المحلل ، وهو يمر على قصيدة لشاعر آخر من المجددين ، يقول فيها : (.. وكما ان الشجر الطيب . يعطي ثمراً طيبْ) .. الخ دون ان يستوقفه سكون الباء في (طيب) من الشطرة الثانية ، ودون ان يفكر حتى بعقلية طلاب المدارس على الأقل ليدرك ان القاعدة العربية الظاهرة تقضي ان يقول ثمراً طيباً . ثم دع هذا ، وتعال اسمع هذا البيت لشاعر نسائي معروف .. يقول : (.. ما الذي حررني ؟ ــ من حكاياكِ القديمة ــ من قضاياك السقيمة ..) ان هذا الشاعر لو فهم شيئاً من اللغة العربية لما طاوعه لسانه ان يجمع حكاية على (حكايا) حتى في كلامه العامي . فكيف وهو يصطنع في كلامه الأدب ..؟

غير ان الأدب الحديث شيء لا يصل عقل سيبويه الى دركه وفهمه ! وهذا من سوء حظ سيبويه وجماعته العرب طبعاً ، وليس من سوء حظ الأدب الحديث الراقي .. الراقي جداً .

الروح التي تشيع في آداب الغرب . مع أن هنالك فرقاً كبيراً بين طبيعة لغتنا العربية واللغات الاوربية الأخرى . فلغتنا هي وحدها التي تمتاز باتساع عظيم في متنها ، وافتنان عجيب في أساليبها الدلالية . انها اللغة الوحيدة التي تستطيع ان تسخّر ثلاث كلمات منها لثلاثة معان مختلفة ، حسب تأليفك لتلك الكلمات مع بعضها وترتيبها في النسق . ومن ثم فقد كان ثلاثة أرباع الجهد الأدبي في هذه اللغة منصرفاً بطبعه الى فقه هذه الأساليب ودراسة ذلك البحر الزاخر من الكلمات ..

أما اللغات الأخرى ، فان ضمورها من هذه الناحية — على تفاوت بينها في مقدار هذا الضمور — جعل آدابها بطبيعة الأمر تنصرف الى العناية بناحية أخرى وهي الموضوع . ولقد كان أن نضحت عن العناية المستمرة بتلك الناحية مذاهبهم وابتداعاتهم فيها من واقعية وخيالية ورمزي ومكشوف ، وما بين ذلك من فلسفات نظرية وتحليل نفسي في معظم الاحيان . ومن هنا كان واجباً علينا أن لا نغفل عن أن الأدب الغربي أصدق مرآة يتراآى فيها سلوك الغرب واخلاقه وطباعه . وما الرمزي والمكشوف الا عنوان طرف من أخلاقه المتحلّلة الفارغة . فهما سبيلان للتعبير الفاتن عن مواضع الشهوة .. ولعلهما يستمدان فلسفتهما عن السبيلين الفنّيين في لباس المرأة للتعبير عن أمكنة الفتنة في جسمها . والسبيلان هنا في مجموعهما : ثوب الشاطيء المكشوف .. وثوب الشارع الرمزي ..

غير أن شهوة التقليد الساذج لدى جمهرة (المتأدبين) عندنا اليوم لا تدعهم يدركون هذا الفرق الواضح . انهم يريدون على أي حال أن يصبح الأدب العربي هو بنفسه الأدب الغربي ، لا يميزهما عن بعضهما سوى هذا الغطاء من الالفاظ فوق كل منهما ... وهم فوق ذلك لا يجدون أي غضاضة في أن يدعوا بأن هذا هو وحده الطريق الى الرقي بالأدب العربي اليوم .

وعندما نفضل أن ندع الجدل اللفظي وأسلوب التفاخر بالادعاآت الى البحث عن النتيجة العملية للرقي الأدبي على يدهم بوصفه أدباً عربياً نجدنا أمام كارثة خطيرة .. ونجدنا ملجئين الى انتزاع ابتسامة فاترة مريرة من منظر اللائحة الغرورية التي كتب عليها من فوق الكارثة : (الأدب العربي الراقي) ، ونجدنا تتذكر بوحي الحالة قصة غني الحرب الذي قالوا انه تضايق من كلاحة ورثة الطلاء على صندوقه المالي الى جانب المظهر الفاتن لخزانة الملابس القائمة الى جانب الصندوق . فأرسل وراء من يطليه له طلاء فاتناً يشبه فتنة الخزانة .. قالوا وكان الشخص الذي استدعاه ماهراً في طلاء الصناديق واقتناص ما في داخلها في آن واحد . فكان من خبثه أن راح يشغل الغني بما يجب ان يكون عليه شكل الطلاء وهندسته حتى اذا استغفله اندست يده الى الداخل ولم تخرج الا وقد نظف ما في باطن الصندوق . أما غني الحرب فقد كان غارقاً في تلك اللحظة في تخيل أحسن الالوان (الروماتيكية) لطلاء الصندوق ... !

ليس مـن فرق في نظري بين التقـدم الذي احرزه غني الحرب لصندوقه بجمال ذلك الطلاء ، والتقـدم الذي انتهى اليه المتأدبون الجـدد بتلقيح الأدب العربي بطبيعـة أدب الغرب . فالاول فقـد الصندوق كله لأنه حصر اهتمامه بجانب تافه من متعلقاتـه الشكلية ، والآخرون نسوا فقه اللغة العربية وجهلوا أبسط قواعدها واحكامهـا من وراء ترقيتهم له ، أي من وراء تعطيلهم لرسالته الاصلية التي تعنى كما قلنا بفقه الاسلوب العربي ودراسة متنه .

والا فهل يجوز أن نطالب الأديب الصحيح بأقل من تذوقه وتفهمه للقرآن الكريم وادراكـه لضوابط اللغة العربية واساليبها ؟

ولكن ماذا .. ان قلت لك ان كثيرين مـن هؤلاء الذين يزعمون انهم من أولي الفضل على الأدب بسبب هذا التجديد لا يفقهون كثيرا من بسائط القواعد العربية ويجهلون جملة من أساليب العربيـة في القرآن وغيره ؟ !

اجتمعت بأحدهم مرة ــ وهو من الذين يتخـذون المذاهب في الأدب ــ ومع سياق الحديث بيننا أخرج من جيبه مذكرة قـد كتب فيها بعض آيات القرآن التي استغلقت عليه ورأى فيها محط نقاش ومحاكمة لصوغها العربي ، وراح يريني كيف أنه انتبه اليها ولم يعثر عند أي وجـه عربي على سبيل لصحتها .. ولقـد كان من جملـة آياتـه التي استشكلها قوله تعالى (ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه ..) وكان مأخـذه عليها ان جواب (ان) في قوله ان مكنـاكم

غير موجود ، مع أنه لا يجوز حذف جواب الشرط في مثل هذه الجملة بالاتفاق .. ! وآية اخرى استوقفته وهي قوله تعالى عن سيدنا يوسف (وقال الذي نجا منهما واذكر بعد أمة ..) اذ كيف يقال أن يوسف تذكر بعد انقراض أمة ، مع أن الأمة التي كان يعايشها لم تكن قد انقرضت بعد !

ولما قلت له انّ (ان) في الآية الاولى نافية وليست للشرط ، وان كلمة (أمّة) معناها هنا الحين ، والمعنى أنه تذكر بعد حين ــ فكر قليلاً ثم نظر اليّ قائلاً : وهل انت متأكد من أن (أمة) تأتي في اللغة بمعنى الحين ؟ ....

واعجب من هذا أن أحد الذين يظلون يكتبون المقالات في القصص والأدب ويحللونه التحليل الأوربي الجديد سمعته يقرأ هذا البيت العربي المشهور :

(ان الثمانين ــ وبلّغتها ــ قد احوجت سمعي الى ترجمان)

باسكان اللام من وبلّغتها أي (وبلّغتَها) ! ولما سألته متجاهلاً عن محل هذه الكلمة مما قبلها أسرع قائلاً : انها معطوفة على الثمانين ! ولقد ظل يعجب ويجادلني برهة طويلة عندما قلت له ان الرواية والمعنى: وبلّغتها على انها جملة دعائية معترضة ، وكان الذي ختم الجدال هو أن أتى أحد الحاضرين له باحد كتب شواهد الشعر في النحو يريه رواية البيت .

وحدثني أحد الأصدقاء المدرسين أن أديبة تعلّم الأدب العربي في

المدارس ، قالت في اعراب كلمة (اذا) : انها ظرف لما يستقبل من الزمان مبني على السكون في محل رفع مبتدأ ..!

ان انصراف هؤلاء السذج عن العناية بفهم مثل هذه القواعد الأساسية في الأدب ، الى التحليل الموضوعي على الطريقة الغربية ، هو في حد ذاته أتفه بكثير من انصراف الغني الأحمق عن العناية بحفظ ماله الى الانشغال بتشكيل الصندوق بالألوان والطلاء . فالصندوق قد يحتاج في بعض الأحيان الى نوع من الطلاء . ولكن الأدب العربي لم يكن يعوزه يوماً ما أن يحمّل هذه الفلسفة الأجنبية عنه على حساب خدمته لفقه اللغة العربية وتخليدها .

وأفضل بكثير من انشغال (المتأدب) الحديث بتحليل مزايا الكلاسيكي والرومنتيكي ومزايا الرمزي والمكشوف ، أن يتأكد من معرفته لمزايا الكلمات العربية في الجمل وأمكنة استعمال كل منها . وقد يظن عند نفسه أنه يغوص في حقائق أخطر من هذا في ما تعود به من نفع على الأدب ، غير أننا لو سألناه مثلاً أن يجيبنا عن الفرق بين كلمتي (القضم) و (الخضم) أو (الخَوَص) و (الحَوَص) أو (الغلط) و (الغلت) أو (الهامدة) و (الخامدة) أو شبه ذلك مما يتعين عليه كأديب دركها وفهما — فانه لن يجد في مَغَاصه الخطير ذاك ما يُنجده لمعرفة ذلك والاجابة عليه .

أنا لا أهدف من كلامي هذا الى أن الأدب العربي يجب أن يعيش في عزلة عن الأدب العالمي ، ولكني أقول يجب قبل كل شيء أن يحتفظ

الأدب العربي بمستلزماته ورسالتـه • ومستلزماته هي أن يـذوّق هؤلاء الذين يتهافتون عليه اليوم الناحية العلمية في تراثنـا العربي مرتبطة بمعينه السحري الأول : القرآن الكريم • أما رسالته فهي أن يثمر في نفوس ذويه وقرائه أخلاقاً عربية متحررة •• والأدب العربي حينما يسلك سبيله الطبيعي السليم خير عون على التطبع بالأخـلاق والمبادىء العربية السامية •

فاذا ضُمن للأدب العربي هذان الركنان الأساسيان ، فليس من مانع أن يزاد عليهما بعد ذلك كل خصائص الآداب الأخرى وميزها بل وهو أمر لا بد منه • ولكن من الجهل والسذاجة بمكان أن نستعيض عن مقوماته الأساسية ، هـذه الخصائص والميز • انها حينئذ تبـدو أجنبية عنه تماماً ، ولا تزيد فيه الا الضرر ، ولا تجعل منه دعاية لغير المجتمع الغربي وآدابه •

* * *

ولقد كان من خير ما تفاءلت به في بداءة مستقبل سعيد للأدب العربي في بلادنا ما قاله الرئيس جمال عبد الناصر في المؤتمر الأدبي الأخير الذي عقد في القاهرة ، حيث قال للأعضاء : (ان المجال الفكري والأدبي هو أهم متسع لمرتع الحرب الباردة التي يعتمد عليها المستعمر اليوم اعتماداً أساسياً • فلا بد اذاً من اقامة أدب عربي متحرر مستقل خالٍ عن السيطرة الأجنبية والنفوذ الأجنبي) •

غير أني أعود لأستعرض الأدباء الذين كانوا ينصتون الى هـذا

التوجيه ، فأراهم أو أرى كثيراً منهم رسلاً للأدب الأوربي بيننا ، الأدب الأوربي في فلسفته وموضوعه ، والأدب الأوربي في أخلاقه ومبادئه . ترى هل يؤمل أن يقلعوا عن هذا الاتجاه ويعودوا الى انشاء أدب عربي متحرر لا يتصل نسبه الا بأصله العربي العظيم ، ولا تشرق في مرآته سوى شمس خلقه الراسخ المتين ، ولا يستبين في الحانه سوى رنين العدالة والاخاء ودوي الحق والقوة ؟

اننا الى هذا الحين ما وجدناهم يحاولون الاتجاه نحو شيء من هذا .

وانما نجدهم ينشرون بين الحين والآخر في صفوف فتياتنا وفتياننا روايات تضرب أفئدتهم بدقات الثورة الجنسية عوضاً عن ان تحيي فيها دقات من التطلع الى الدفاع عن عرض هذا الوطن العربي وأرضه ، وتصور في أفكارهم الطاهرة دم العذارى اذ يسفح تحت أغشية الظلام والخمر بدلاً من أن تصور فيها دماء أبطالنا التي تستباح هدراً في الجزائر واليمن على ايدي الطغاة المستعمرين .

وان أي مكابر على وجه الأرض لن يستطيع أن يزعم أن هذا يعني أي اتصال بين الأدب وروحه العربية المتحررة عن السلطة الأجنبية .. أو أي اتصال بين الأدب والقومية العربية أو بينه وبين الاخلاق الاسلامية العليا .

ولكنه يعني الاتصال بين ما يسمونه (الأدب) و (لقمة العيش) كما اعترف بعضهم بذلك ، غير أن لقمة العيش لا يجوز أبداً أن تتقدم لهم على حساب أخلاقنا وعروبتنا وميراثنا العلمي والأدبي .

لغتنا ... والقرآن

.. هذا القرآن الذي هانت عظمته على نفوسنا ، فتلاشى بسبب ذلك الخوف منه في صدور اعدائنا ، حتى غدت اسرائيل ايضاً تطربنا متغنية بالفاظه ، ولو علمت انه يمس طرفاً من افئدتنا لما انطقت اذاعتها بحرف واحد منه ـ هذا القرآن لولاه ايها العرب لما كانت اليوم للعرب لغة تعرف ..

اللغة العربية .. هذه اللغة الخالدة التي أشابت الدهر ولم تشب ..

هذه اللغة التي توارثها الى يومنا هذا جيل من العالم بعد جيل ، وهي في أسمى ذروة من الاشراق ، لم تبل ولم ترثّ ولم تتضاءل .

هذه اللغة التي انبثق منها الى أقطار الدنيا كلها نور الحضارة والعلم ، يوم أن كان العالم كله راقداً في ظلمات الجهل !

هذه اللغة التي أثارت عجب المغول وألهبت حقدهم ، فانقضوا عليها ليخنقوها ويقذفوا بها في مياه دجلة العارمة . ولكن الخنق لم يمتها ودجلة لم يغرقها ، وهبّت اللغة العربية منتصبة على قدميها تعلن عن وجودها فوق أرفع ذروة من كرة الأرض !

وجاء نابليون كالثائر المسعور يريد محوها ودفنها في متاهات الصحراء .. وجاء الترك هم الآخرون يريدون الكيد منها واشفاء غليل حقدهم عليها .. وعقدت مؤتمرات باريس لاستكشاف السبل الى محوها وفرنسة العرب الأحرار .. وهرع الاستعمار كله بشتى حيله وأساليبه ليطفىء جذوتها .. ولكن اللغة العربية ظلت رغم كل ذلك من المناعة وبعد المنال ، مثل ذلك الكوكب المتألق في صفحة السماء . وعاد الغيظ منها خنجراً استقر في أفئدة أصحابه .

هذه اللغة المدهشة العجيبة .. أي شيء أكسبها هذا الخلود والاشراق ؟

أي روح هذه التي وحّدت جميع لهجاتها المتباعدة المتباينة من : معينية ، وسبئية ، وقتبانيـة ، ولحيانية ، وثموديـة ، وصفويـة ، وحضرمية . فالتحمت كلها في لهجة معينة واحدة ، وراحت تمتـد ثائرة في آفاق العالم ، شامخة فوق متن الخلود ؟

وأي شريان سحري هذا الذي امتد في أجلها ، فجعلها تمر على مصرع أعظم لغة عالمية شاملة (اللاتينية) ، بينما تغلي هي حيويـة وقوة واشراقا .

انه لا يكفي أيها العرب أن نقف عند حدود الفخر بهذه القـوة للغتنا وخلودها دون أن نتساءل عن سر هذه القوة وذلك الخلود . كما لا يكفي أن أزعم للناس أن أجدادي كانوا عظماء وأثرياء دون أن أقف على سر عظمتهم وثرائهم لأسعى سعيهم وأكسب من موارد كسبهم .

* * *

ان السر في كل ذلك أيها العرب هو القرآن ..

ان الروح الجبارة التي أكسبت لغتنا هذه الديمومة الخالدة هي القرآن .

ان الجاذبية التي ضمت ووحدت لهجاتها النائية المتفرقة ثم قذفت بها وحدة مشرقة في آفاق العالم كله هو القرآن .

ان الطاقة الخارقة التي خلقت من لغتنا هذه عملاقا مدهشاً يبسط سلطانه في العالم بقوة لا تغلب وحياة لا يصرعها الموت هو القرآن .

هذا القرآن .. هذا القرآن الذي طويناه جانباً عن التدخل الى معظم شؤوننا ولم نعد نتذكره الا للتغني بألفاظه ، وتزيين خطبنا وكلامنا بفقرات من آياته ، هذا القرآن الذي هانت عظمته على نفوسنا ، فتلاشى بسبب ذلك الخوف منه في صدور أعدائنا ، حتى غدت اسرائيل أيضاً تطربنا متغنية بألفاظه ، ولو علمت أنه يمس طرفاً من أفئدتنا لما أنطقت اذاعتها بحرف واحد منه ـ هذا القرآن لولاه أيها العرب لما كانت اليوم للعرب لغة تعرف ، ولما كانت نتيجتها خيراً من نتيجة اللاتينية التي تفتتت وتلاشت وتحولت الى تاريخ يقال .

أيها العرب : هل قعد أحدكم يوماً ليفكر في أننا لم نؤد هذا الكتاب أقل جزء من حقه علينا لقاء فضله على ابقاء لغتنا وحفظ تاريخنا على الأقل ؟

هل قعد أحدكم في ساعة من نهار لينتبه الى صوت هذا الكتاب الداوي يعظنا ويوقظنا ويحذرنا ويأمرنا .. ولكنا جميعاً عن صوته الداوي معرضون ؟

ترى متى يحين الوقت لأن نستحي من فضل هذا الوحي السماوي علينا ، وأن نخجل من لمساته الرقيقة التي تمتد الى مشاعرنا قائلة : (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق) وأن نستشعر رهبة هذا الكتاب الالهي العظيم اذ يقول : (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله) ولكن قلوبنا أيها العرب أقسى من صخور الجبال .

هل علم العرب المتفاخرون بعروبتهم أن أولادهم في المدارس يتقنون تلاوة كتاب انكليزي أو افرنسي أكثر من تلاوة القرآن ؟

هل علموا أن كثيراً من شبابهم الذين يحملون الشهادات والاجازات تمر على مسامعهم الآية من القرآن وهم لها جاهلون ، لم تطرق قبل ذلك سمعهم ، ولا يعلمون هل هي جملة من كلام عربي حكيم أم فقرة من حديث التوراة والانجيل أم كلمة من مأثورات تولستوي أو نابليون؟

أيها العرب : ان لم يدفعكم الى العناية بقرآنكم أنكم مسلمون لتشريعه وأحكامه ، فليدفعكم الى ذلك الحفاظ على لغتكم والعناية باستمرار تاريخكم ، وان لم يدفعكم الى ذلك كلا الامرين فليدفعكم اليها الحياء من منته عليكم وتفضله على غابر مجدكم . أما ان لم يجد كل ذلك سبيلاً الى انهاضكم للقيام بحقه ، فاعلموا أنما هو قبر الحضارة العربية تحفرونه بسواعدكم ، وتخنقونها بأيديكم ، بعد أن عجزت عن ذلك الدنيا كلها ثائرة متألبة مجتمعة . ولعمري ليس العجيب أن تكون الثروة في ركن منيع عن يد الباغي ، ولكن العجيب أن لا يتلف الثروة الا ربها وحارسها .

والا فمن الذي يجهل أن القبر قد بدأ يُحفر ... ومن الذي يجهل أن هذا الجيل الناشىء أضعف في فهم اللغة العربية بكثير من الجيل الذي سبقه مباشرة ؟ ومن الذي يستطيع أن يأتيني بثلاثة شبان تخرجوا من ثانوية واحدة يستطيعون أن يكتبوا صحيفة واحدة من

الانشاء العربي الصحيح ، أو أن يقرأوا قدر ذلك من أي كتاب عربي دون لحن أو تكسير ؟

ثم مَن الذي يستطيع أن يتجاهل بأن هذا الضعف انما هو ناشىء عن عدم سريان الروح القرآنية في نفوسهم لتحيي فيها الذوق العربي وتربي في مشاعرهم السليقة البلاغية لهذه اللغة • بل ومن هو هـذا الذي استطاع أن يصبح أديباً عربياً صحيحاً دون أن يتخرج من مدرسة القرآن ويعكف عليه تحليلاً وتذوقاً وحفظاً ؟

ان وزارة التربية والتعليم تظل حائرة في مجال البحث عن سبيل يضمن تقوية اللغة العربية في ألسنة النشء • وهي دائماً تبحث عـن هذه الغاية في الاكثـار من ساعات دروس العربي مرة ، وفي رفـع مستوى درجاته في الفحوص أخرى • غير أن هذا كله لن يجـدي نفعاً ــ وأقول هذا بكل تثبت وتأكد ــ لأنها لم تهتد بعد الى المعين العظيم الأول لانتهال فن العربية والتطبع بروحها وسليقتها ، ألا وهو القرآن ، القرآن في مزاولة قراءته (وينبغي أن يبدأ ذلك من لـدن معرفة التلميذ للقراءة والكتابة) والقرآن في دراسة أسلوبه ومعنـاه وتحليل وجوهه البلاغية المعجزة ، والقرآن في حفظه أو حفظ مقادير منه على الأقل •

ولأنتهز هنا هذه المناسبة ، لأقول بأن الوزارة ستلمس تقدمـاً واضحاً ان شاء الله في صفوف طلابها الثانويين في فن العربية في مدة وجيزة من الآن ، لا بفضل اهتمامهـا بدروس العربية ، بل بفضـل

دخول فرع القرآن على مادة (التشريع الاسلامي) . ان هذه الساعة الواحدة كفيلة بأن ترفع مستوى اللغة العربية في المدارس في خلال سنة واحدة بشرط أن يتوفر الاخلاص والكفاءة في تدريس ذلك ، وبشرط أن تكون الأسرة عوناً للمدرس على أداء هذه الوظيفة والنجاح فيها .

وأقول هذا ، لأن في قلبي كيًّا من كثير من العائلات التي تزعم أنها عربية ، وتتمشدق بشعارات العروبة ، وتعلن للملأ كله تمسكها بمبادىء الاسلام أو انتماءها لدين الاسلام . ولكنها تقف موقف الساخر من ابنها الشاب أو ابنتها الشابة عندما يقوم أحدهما في البيت بمحاولة اتقان هذا الواجب الاسلامي العربي واعطائه حقه .

حدثتني احداهن أنها كثيراً ما تأخذ تفسير القرآن في بيتها لتتلو بعضاً منه أو تذاكر درسها فيه ، فيلتف من حولها كبار العائلة ليلقبوها بـ (الشيخة) !!

ألا بعداً لكل من يزعم أنه عربي ولا يملك من الوعي العربي ما يهديه الى تقديس مقوّمات عروبته .

وسحقاً لكل من يزعم أنه مسلم ، ثم لا يتجاوب مع أبسط القواعد التي تبرهن على صدق اسلامه .

وياما أبعد اليوم الذي تنتصر فيه العروبة على أيدي هؤلاء الأطفال المتعاظمين ....!!

وأخيرًا ...

.. هل نختار ثوبنا الحضاري الذي خلفه لنا التاريخ وأورثنا اياه رسولنا الكريم ، وبذلك يكون سابغاً لنا متسعاً على قدرنا ، أم ننقضه ونقصه لنجعل منه زيّاً آخر ، واذا به يستحيل الى مزق لا تستر عرينا ولا يتفق مع زي أي أمة غيرنا ؟

وأخيراً ، تعالوا نتساءل : هل بوسع هذه الأمة العربية والاسلامية ـ لو شاءت أو شاء لها بعض فئاتها ـ أن تتحول الى أمة أوربية فيما قد يبدو على مظهر حياتها من سيما الغبطة والسعادة ؟

ان علينا أن ندرك أن الأمة العربية تستطيع بسهولة أن تخرج على مبادئها وتحيد عن صراطها الذي انتهى بها الى أوج التاريخ ، ولكنها لن تستطيع في يوم ما أن تصبح من وراء هذا الانحراف والعدول ذات طابع أوربي صميم .

والسبب أن هنالك فوارق متأصلة بعيدة الجذور بيننا كأمة شبت منذ فجر تاريخها على غذاء الروح الاسلامية ومبادئها ، وبين الآخرين كأمم اتخذت من فلسفة المادة الساذجة وحدها الهواء الذي تتنسم منه الحياة .

ان هذه المبادىء التي ترعرع بغذائها هذا الشرق قد استحالت مع توالي الأجيال والدهور ـ ولا ريب ـ الى طبيعة راسخة موروثة تكمن في قرارة نفسه كمجموع ، وان كانت تتفاوت فيها قوة وضعفاً بالنظر الى الأفراد . وسواء كتب لهذه الطبيعة الكامنة أن تتجلى وتسيطر أم كان من سوء حظها أن تخبو وتندثر ، فانها على كل حال تقوم أكبر حاجز في طريق اكتساب حياة أوربية أصيلة لمجتمعنا .

والذي يحصل بالتأكيد بعد أن نحاول اقامة مثل هذا المجتمع

بيننا هو أننا نقع في جوّ من الفراغ النفسي ، وننتهي الى حالة تشعرنا بأن أي تاريخ لا يتعرف علينا ، وسنتخيل أن الأمم كلها تنظر الينا بهذا الاعتبار ، أي كشحاذين تتقاذفنا جدران التواريخ والحضارات التي تتطفل عليها ، وستتراكم على نفوسنا من ذلك مركبات النقص ، وسيحول كل ذلك بيننا وبين الوصول الى ثمار ذلك المجتمع التي نتخيلها وتتحلب منا الأشداق شهوة اليها .

ان بعضاً منا قد يقنع بأن عقلية الأمة العربية وحدها لا تكفي لانشاء حضارة ، فيستعيرون لتقويم حضارتهم عقولاً من الغرب ، ولكن الذي يتم بعد ذلك أنهم لا الحضارة يستبقون ولا بعقول أولئك ينتفعون . وقد يتخيلون أيضاً أن المدنية لا تصبح في الشعب زاهرة الا اذا صقلها فن الميوعة ونشطت من سيرها عوامل العاطفة والأهواء ، ثم يؤمون بوجوههم شطر الغرب ليحملوا الى وطنهم من هناك فن الميوعة وطرق اكتساب الأهواء ، ولكنهم يعودون وقد أصبحوا من تأثير البيئة لا يريدون أن يكونوا شرقيين لتسمم أفكارهم وتطور اتجاهاتهم ، ولا يستطيعون أن يصبحوا غربيين لاباء عنصرهم واختلاف دمهم ، فيظلون هناك في مفترق الطرق شعباً مذبذباً في أفكاره وعقيدته وأخلاقه .

أجل .. وان أتاتورك الذي اجتثّ من بلاده عروق الاسلام ، وخنق فيها الحضارة الشرقية بكل مظاهرها ، ثم انطلق يحث بها الخطى نحو الغرب — لم ينجح في أن يدخل أمته الى دار أمريكا لتشاركها

في حياتها ومستواها .. ولكنه نجح في أن يقف بها على أعتاب دارها فقط ، مفلسة من تاريخها ، عديمة من الشعور الاستقلالي ، ضالّة عن مميزاتها كأمّة .. وها هي السنوات التي مضت من انقباعها على تلك الأعتاب قد أربت على الثلاثين ، وهي بعدُ لم تلج الى الداخل .. ولم ينسج لها كل تلك السنوات ثوباً غربياً تستطيع أن ترتديه بعدما مزق عنها ثوبها الشرقي القديم . وكل من يلمحهـا وهي في ذلك المرمى الذي قذفها اليه أتاتورك لا يملك الا أن يحتار طويلاً في شأنها كما يقول الاستاذ لويس. ف. توماس . فهو لا يستطيع أن يعثر لها على وصف حازم يضعها في فريق من الأمم . فلا هي بالدولة المسلمة المنطبعة بحضارة اسلامية ، كيف وهي لا تزال تتبرأ من ذلك ، ولا هي تستطيع أن تزعم بأنها دولة أوربية أو أمريكية ، اذ أن الدم الاسلامي في كثير من أفرادها لا يزال حاجزاً حصيناً يمنع انطباعها بالروح الأوربيةالصادقة.

* * *

فما الذي نختار نحن اذاً ؟

هل نختار ثوبنا الحضاري الذي خلفه لنا التاريخ وأورثنا ايـاه رسولنا الكريم ، وبذلك يكون سابغاً لنا متسعاً على قدرنا ، أم ننقضه ونقصه لنجعل منه زيّاً آخر ، واذا به يستحيل الى مزق لا تستر عرينا ولا يتفق مع زي أي أمة غيرنا ؟

انني على يقين من أن أحداً بيننا لا يرضى بهذا العري والعار .

ان ثورتنا ما قامت ، ووحدتنا ما تمت الا انتصاراً لتراثنا القدسي

الخالد ، وحفظاً لثوبنا الحضاري السابغ . وهذا هو وحـده معنى انتصار الحياد الايجابي وانتهاج سبيل الحياد الايجابي .

اننا ـ ونحن أمة عربية مسلمة تنتهج لنفسها بكل حماس هذا السبيل ـ مدعوون حكومة وأمة وأفراداً الى تحقيق مثلنا العليا التي سما بهـا تاريخنا وتحققت بسببها عزتنا . اننا مدعوون جميعاً الى مكافحة هذه الأوبئة الخلقية والالحادية والانحلاليـة التي تشيع اليوم في ثنايـا مجتمعنا وتهدد أرفع عماد يحفظ عزتنا وكياننا الداخلي .

* * *

وهنالك سبل عريضة ثلاثة ، هي خير ما يكفل انتصارنا الداخلي هذا.

وهي أولاً : المدارس .

فعلى وزارة التربية والتعليم أن تجنـد كل عنايتها واهتمامهـا لتحصين الخلق وحفظه في سيـاج من العقيدة والايمـان . وذلك لا يكون عن طريق دروس الدين والتشريع الاسلامي وحدها ، وانما ينبغي أن توضع من أجل ذلك مادة دراسية مستقلة برأسها ، اسمها : (التربية الخلقيـة) تسند الى معلمين ومدرسين اخصائيين بشؤون هذه التربية .

ثانياً : الاتحاد القومي .

فمن واجب هذا الاتحاد أن يعمل على اصطباغ المجتمع والأفكار بالصبغة الاسلامية المعتزة ، وأن يعالج النفوس التي سرى اليهـا داء الافتتان بتقاليد الغرب ، بخلق وعي عربي صحيح لديها عوضاً عـن

الألفاظ الفارغة التي لا تسوق وراءها أي معنى من المبادىء والاخلاق . وهذا هو وحده الهدف الكبير الذي يبرر بل ويوجب قيام اتحاد قومي فيما بيننا . أما اذا عجز عن أداء هذه الرسالة أو استهان بها فلن ترى له أي نفع جوهري ملموس من وراء ذلك .

ثالثاً : علماء الدين .

انني اعود هنا وأكرر واثقاً بأن هؤلاء الرجال يستطيعون في كل وقت أن يفرضوا جلالهم وسلطانهم على المجتمع ، وأن يقودوا زمام النفوس في طواعية كاملة ـ هذا ان اتفقوا فيما بينهم ، وبرهنوا على اخلاصهم ، ووضعوا هدف تحقيق المبادىء الاسلامية وحده نصب أعينهم .

أجل .. انهم يملكون هذا لو تقدموا ، ولكنهم لا يتقدمون ولا يتفقون ..

غير أنهم مكلفون من قبل الله ، ومن قبل هذه الأمة بأسرها ، ومن قبل الروح التي تسري في وحدتنا الجديدة ـ مكلفون من قبل كل ذلك بأن يساهموا في الكفاح ، وبأن يعملوا هم الآخرون شيئاً في سبيل مبادئنا ، وأن يدأبوا على الانتصار لمثلنا العليا وانتشالها من بين براثن هذه المدنية الأجنبية الزائفة . والعمل المجدي في هذا السبيل لا يكون الا بأن يتحدوا ويتضامنوا ويسيروا جبهة واحدة كرجل واحد ، لا أن يتدابروا ويجعلوا ما يمكن أن يتفقوا عليه من قضايانا الهامة ضحية للجزئيات التي يختلفون من حولها .

* * *

فاذا تضافرت هذه القوى الثلاث واتجهت في سبيل احياء الروح العربية الصحيحة في مجتمعنا ، فاننا من غير شك نحرز باذن الله انتصارنا الداخلي المنتظر .

وانتصارنا الداخلي هو وحده العماد الراسخ الذي يحفظ لنا انتصارنا الخارجي ويجعلنا في حصن منيع بعيد عن أطماع الطامعين والمتكالبين .

والله المستعان وهو نعم المولى ونعم النصير .

فهرس

الصفحة	
٣	بين يدي الكتاب
٧	تاريخ أغر يتجدد
١٣	نريد جيلاً مؤمناً بالله
١٩	العروبة كما ينبغي أن نفهمها
٢٧	سياسة الدعوة في الاسلام
٣٩	بيني وبين دكتور فاضل
٤٥	على رسلكِ أيتها الفتاة
٥٣	النفوس الذليلة
٦١	الغايات والوسائل في حياتنا العملية
٦٧	قلب يحترق
٧٣	من المسؤول عن هذه الضحيّة ؟
٨١	مأساة السلوك الخلقي في مجتمعنا
٩٥	مأساة الوعي الخلقي في مجتمعنا
١٠٣	رسالتنا في الحياة
١١٥	رسالتنا ... والحرية
١٢٥	رسالتنا ... والأدب
١٣٧	لغتنا ... والقرآن
١٤٥	وأخيراً ...

اقرأ للمؤلف المأساة العاطفية الكبرى :

مـــم و زين

الكتاب الذي طبع في ثلاثة أشهر مرتين

واستنفذت الاسواق الآلاف من نسخه

T Jack

بعض منشورات المكتبة العصرية

السعر ق.س	
٢٠٠	اطلس بلاد العرب وكيفية رسم الخرائط مع خلاصة عن كل بلد واقتصادياته
٥٠	مجموعة قصص للاطفال ملونة ومصورة
٧٥	كيفية رسم الخرائط للدول العربية والعظمى
٥٠	كيفية رسم الخرائط للدول العربية
٢٠٠	اصول اللغة الالمانية مفردات ومحادثة ورسائل

PB-33637-SB
521-03
5-c

6075

DATE DUE

DEMCO 38-297

NYU - BOBST
31142 02820 9024
DS38 .B85
Fi sabil Allah wa-al-haqq